خالد محمد خالد

الدولة في الإسلام

دار ثابت

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى { صفر ١٤٠١
يناير ١٩٨١

الناشر دار ثابت للنشر والتوزيع ٩٢ (أ) شارع محمد فريد — القاهرة
ص.ب ٦ باب اللوق

بسم الله الرحمن الرحيم

وأنِ احكُم بينهم بما أنزل اللـــه

ولا تتّبع أهـــــواءهم

واحـــذَرهم أن يَفتِنـــوك

عن بعض ما أنزل اللـــــه إليك

صدق الله العظيم

To: www.al-mostafa.com

— ١ —

فى عـــام ١٩٥٠م ظهـــر اول كتـــاب لى ، وكان عنـــوانه : « من هنا .. نبـــدأ » .

وكان ينتظم اربعة فصول ، كان ثالثها بعنوان : «قومية الحكم»

وفى هذا الفصل ذهبت اقرر أن الاســـلام دين لا دولة ، وانه ليس فى حاجة الى ان يكون دولة .. وان الدين علامات تضيىء لنـــا الطريق الى الله وليس قـــوة سياسية تتكحم فى الناس ، وتأخـــذهم بالقوة الى سواء الســبيل . ما على الدين الا البلاغ وليس من حقه أن يقود بالعصا من يريد لهم الهدى وحسن ثواب .

وقلت : أن الدين حين يتحـــول الى « حكومة » ، فان هـــذه الحكومة الدينية تتحول الى عبء لا يطـــاق . وذهبت اعدد يومئـــذ ما اسميته : « غرائز الحـــكومة الدينية » وزعمت لنفسى القدرة على اقامة البراهين على انها اعنى الحكومة الدينية فى تسع وتســـعين فى المائة من حالاتها جحيم وفوضى ، وانها احدى المؤسســـات التاريخية التى استنفدت اغراضها ولم يعد لها فى التاريخ الحديث دور تؤديه .

وكان خطئى اننى عممت الحديث حتى شمل الحكومة الاسلامية .

وقلت : ان غرائز الحكومة الدينية تجعلها بعيدة من الدين كل البعد ، ولخصت هذه الغرائز فى :

(١) الغموض المطلق ، اذ هى تعتمد فى قيامها على سلطة غامضة ، لا يعرف مأتاها ، ولا يدرك مداها ، وصلة الناس بها يجب ان تقوم على الطاعة العمياء والتسليم الكلى والتفويض المطلق ..

(٢) ومن خصائصها ـ كما قلت يومذاك ـ انها لا تثق بالذكاء الانسانى ولا تأنس له ، ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته ، لانها تخافه وتخشاه .

(٣) وهى لكى تقنع الناس بضرورة قيامها وبقائها تهيب بجانب الضعف فيهم . فتلقى فى روعهم ان رواد الخير والحرية والفكر والاصلاح ليسوا سوى اعداء لله ولرسوله يحاولون نفى الدين عن المجتمع بنفى السلطة التى تمثله وتصونه .

(٤) والغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية ، وهى لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه . بل ولا مجرد لفت النظر فضلا عن المعارضة والنقد .

(٥) والوحدانية المطلقة اعتى غرائزها ـ وهى تحفزها الى مكافحة الراى مهما يكن حكيما ، وقتل المعارضة مهما تكن مخلصة نافعة .

(٦) والجمود الذى تتسم به يجعلها تضيق بكل جديد لان صورة الدين فى ذهنها مرتبطة بكل ما هو جامد وقديم .

(٧) والقسوة المتوحشة هى سيدة غرائزها واكثرها عتوا ونفوذا وانها لتحز عنقك وتهرق دمك وهى تصيح من فرط نشوتها : واها لريح الجنـــة ..

* * *

هكذا ذهبت انعت واهدم ما اسميته يومها بالحكومة الدينية .!

وهكذا اخـــذت كل خصـــائص ونقـــائص الحكم الاتقـــراطى الديكتاتورى وخلعته على ما اسميته « الحكومة الدينية » .. !!

ولم اكن يومئذ اخدع نفسي ولا ازيف اقتنـــاعى ، فليس ذلك والحمد لله من طبيعتى . انما كنت مقتنعا بما اكتب مؤمنا بصوابه .

وحين ارجع بذاكرتى الى الايام التى سطرت فيها هذا الراى وهذه الكلمات لا اخطىء التعرف الى العوامل التى تغشتنى بهـــذا التفكير .. والكاتب حين يحيا بفكر مفتوح بعيدا عن ظلام التعصب وغواشى العناد ، فانه يستطيع دائما او غالبا ان يهتدى الى الصواب ويقترب من الحقيقـــة ويعانقها فى يقين جديد ، وحبور اكيـــد ، ونحن مطالبون بان نفكر دائما ، ونراجع افكارنا ، وننكر ذواتنا ونتخلى عن كبريائنا امام الحقائق الوافدة .. واذا لم نفعل فسنكون كما قـــال « افلاطون » :

« مجانين ، اذا لم نستطع ان نفـــكر .. » !!

« ومتعصبون ، اذا لم نرد ان نفـــكر .. » !!

« وعبيـــد اذا لم نجـــــرؤ ان نفـــكر .. » !!

* * *

واحمد الله على اننى لست من المجانين ، ولا المتعصبين ، ولا العبيد .. ومن اجل هذا كان من اليسير على ان استقبل فى بشر ومودة هذا التفكير الجديد الذى واتانى من طول التامل والتمعن وتقليب وجوه النظر فى حياد سديد .

ترى ماذا كانت المقدمات التى اوصلتنى الى موقفى القديم من « الحكومة الدينية » ، او بتعبير اصح ماذا كانت البواعث النفسية والفكرية التى افضت بى الى ذلك الموقف .. ؟؟

واود — اولا — ان اشير الى ان تسمية « الحكومة الاسلامية» بالحكومة الدينية فيه تجن وخطا . فعبارة « الحكومة الدينية » لها مدلول تاريخى يتمثل فى كيان كهنوتى قام فعلا ، وطال مكثه . وكان الدين المسيحى يستغل ابشع استغلال فى دعمه وفى اخضاع الناس له .

فالحكومة الدينية مؤسسة تاريخية نهضت على سلطان دينى بينما كانت اغراضها سياسية ، واصلت الناس سعيرا بسوء تصرفاتها وتحكمها .. وهى فى المسيحية واضحة كل الوضوح بينما الاسلام لم يشهد فى فترات استغلاله ما شهدته وما تكبدته المسيحية ، لا سيما فى العصور الوسطى ، عصور الظلام !!

ولعل اول خطا تفشى منهجى الذى عالجت به قديما قضية الحكومة الدينية ، كان تاثرى الشديد بما قراته عن الحكومات الدينية التى قامت فى اوربا ، والتى اتخذت من الدين المسيحى دثارا تغطى به عريها وعارها ..

اجل . فانى استطيع ان الخص بواعثى فى ذلك التفكير القديم

وأردها الى عاملين اثنين ـــ كان هذا أولهما .. التأثر بما قرأته عن الحكومة الدينية المسيحية ، ولذلك تجدني أقول في كتابي « من هنا نبـــدأ » .

« .. ففي الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب التي لا تخطر للشيطان نفسه ببال ، فكان الخازوق ، ووتد التشهير ، وصلم الآذان ، وتمزيق الجسد ، ومحاكم التفتيش ، وحرق العلماء بالنار وهم أحياء !! » .

ثم قلت :

« وفي الحكومات الدينية الاسلامية حدثت أهـــوال مروعة ، حتى ان حاكما دينيا واحدا ـــ هو الحجاج ـــ أباد البقية الكريمـــة الصالحة من صحابة رسول الله ، حتى قال عنه « عمر بن عبد العزيز »

« لو جاءت كـــل أمة بخطاياها ، وجئنا نحن بني أميـــة بالحجاج وحده لرجحناهم ... !! »

اذن ، فقد كنت في قمة التأثر ببشاعة وجرائم الحكومة الدينية المسيحية ، ثم عكست الصورة في غير حق على الحكام السياسيين في الاسلام واعتبرتهم حكومة دينية اسلامية .. !!

ومضيت ادحض ما اعتبرته حكومة دينية في الاســـلام بنفس القوة التي دحض بها الفكر الانساني الرشيد الحكومة الدينية التي قامت في ظل الكنيســة وكانت أكثر خطرا على المسيحية من الشيطان نفسه !!

من قال ان الحجاج حاكم ديني .. ؟ وهل في الاسلام كهنوت

يستطيع اى حاكم ان يستمد منه سلطانا مطلقا وفى ذات الوقت يكون مقدسا .. ؟؟ لا . ومع هذا فقد اقتنعت قديما بهذا الذى يبدو لى اليوم تجنيا وخطأ .

ان الاسلام حتى فى فترات استغلاله من بعض الخلفاء والحكام لم يمنح أيا منهم سلطة بابوية كهنوتية ، لانه لا يتسع لاى كهنوت لا فى تعاليمه ولا فى تطبيقاته .

من اجل هذا كان تسمية الحكومات الاسلامية المنحرفة بالحكومة الدينية وتحميل الاسلام وزرها امر مجاف لكل صواب ..

* * *

اما العامل الثانى الذى شكل تفكيرى وموقفى من الحكومة الدينية فقد كان عاملا موقوتا بزمانه . ولكنى جعلت منه قاعدة عامة بنيت عليها حكمى القديم .

ذلك ان « الاخوان المسلمين » كانوا قد بلغوا خلال الاربعينات من الكثرة والقوة والنجاح مبلغا يكاد يكون منقطع النظير .

كانت دعوتهم تسرى بين الناس كالضوء ، وكان الشباب بصفة خاصة يقبل عليها اقبال اسراب النحل على رحيق الزهور !!

وذات يوم والجماعة فى اوج مجدها الباهر ، لا ندرى هل انبثق منها، او اقتحم عليها وتسلل اليها ما سمى يومئذ بالتنظيم السرى. وارتكب هذا الجهاز جرائم منكرة وتوسل بالاغتيالات لفرض الدعوة .. الدعوة التى كانت قد حققت بالاقناع والمنطق ما لم تحققه

دعوة اخرى . . والدعوة التى كانت لباقة مرشدها الاستاذ حسن البنا رحمه الله واخلاصه يفتحان له الآذان الصم والقلوب الغلف ، ويسلسان له قياد الجماهير كلهم ومثقفيهم .

لفتت حوادث الاغتيال التى مارسها ذلك الجهاز السرى انتباه الناس وروعت أفئدتهم . وكنت من الذين اقض مضجعهم هذا النذير . وقلت لنفسى اذا كان هذا مسلك المتدينين وهم بعيدون عن الحكم ، فكيف يكون مسلكهم حين يحكمون ؟؟ !

وتذكرت كلمة المفكر الفرنسى « فولتير » :

« ان الذى يقول لك اليوم : اعتقد ما اعتقده والا لعنك الله ، سيقول لك غدا : اعتقد ما اعتقده والا قتلتك» !!!

على ان ذلك الجهاز السرى اختصر طريقه آنذاك فتخطى وتجاوز مرحلة اللعن الى مرحلة القتل والاغتيال !!

كان هذا هو العامل الثانى الذى جنح بتفكيرى الى التحذير من قيام اى حكومة دينية باسم الاسلام .

وكان هذا خطأ آخر وقعت فيه . .

كان الخطأ الاول مضاهاتى الحكومات الدينية الكنسية بحكم الاسلام .

وكان الخطأ الثانى تعميم نتائج ما اقترفه الجهاز السرى باسم الاسلام .

وفى كلا الخطأين كان هناك خطأ فى المنهج ذاته . فقد جعلت ما تأثرت به من قراءاتى عن الحكومة الدينية فى المسيحية ، وما تأثرت

به من تحول بعض الشباب المسلم من نساك الى قتلة . . جعلت هذا وذاك «مصدر» تفكيري ، لا «موضع» تفكيري !! وفارق كبير بين أن تجعل الحدث او الشيء مصدر تفكيرك وبين أن تجعله موضع تفكيرك .

عندما يكون مصدر تفكيرك فانه يقودك فى طريقــه هو ، لا فى طريق الحقيقة . وتبصر نفسك من حيث تشعر او لا تشعر مشدودا الى مقدمات وسائرا نحو نتائج لم يأخذ الاســتقلال الفكرى حظه فى تمعنها ودراستها .

اما حين يكون الشيء موضع تفكيرك فانه يمد تفكيرك المحايد والمستقل بكل اعتبارات القضية المدروسة دون ان يلزمك بحــكم مسبق يتحرك الفكر داخل اطاره الحديدى الصارم .

الى هذا السبب الجوهرى ارد خطئى فيما أصدرته ـــ قديما ـــ من حكم ضد الحكومة فى الاســـلام ، هـــذه التى اسميتها بالحكومة الدينية .

— ٢ —

والآن ، وفى ضوء اقتناعى الجديد بان الاسلام « دين ، ودولة »

فكيف وصلت الى هذه الحقيقة ؟؟ وما شــكل هذه الدولة ؟؟ وما اغراضها واهدافها حين تقوم ؟؟

اما التقائى بهذه الحقيقة ، أو لنتواضع ولنقل هذه النتيجة . . فقد جمعنى بها فى لقاء سعيد ، العقل لا الوجدان .

لقد توارت الاسباب التى حدثتكم عنها من قبل ، واستقبلت القضية بعقل غير عصى ، ونفس تواقة الى معرفة الحق واعلانه بصوت جهير ، دون أن تجد غضاضة او خجلا من أن تعترف بالخطأ وتواجه الصواب .

قلت لنفسى :

قبل أن يكون هناك اسلام كان هناك عرب . وهؤلاء العرب هم الرعيل الاول الذى حمل راية الاسلام ، وسار بها مشرقا ومغربا .. فهل كان اولئك العرب عنصرا مهيأ لان ينشىء « حكومة » او يتقبل تبعاتها ويحملها فى اقتدار .. ؟؟

هل وقعت للعرب قبل الاسلام تجربة مع الحكم فاسسوا دولا وحكومات ؟

انه على غرض انتفاء هذا الامر ، فلن يسلب الاسلام حقه ولا مقدرته على تأسيس دولة .

ذلك ان الاسلام جاء ليكون قوة تغيير عميقة وشاملة .. جاء لغير العقيدة والمجتمع والسلوك .

فحتى لو لم يكن للعرب سابقة مع الحكومة ، فان الاسلام بخصائصه قادر على تمكينهم من ممارسة هذه التجربة بنجاح .

ومع هذا فسنرى أن هؤلاء الذين نزل الاسلام اول ما نزل عليهم وفيهم ، كانوا وكان آباؤهم ممن انشأوا الممالك والامارات.

فقبل مجيء الاسلام بقرون ، كان هناك عرب لهم حكومات هم الذين انشأوها ، وحضارة هم الذين صنعوها .

يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن (١) :

كان فى الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية مملكة سبأ وحمير وقد بلغت هذه البلاد قبل الميلاد بألفى سنة درجة من الحضارة تدل عليها اطلال المبانى الضخمة ، والنقوش الكثيرة . وهناك شواهد كثيرة لهذه الشهرة والعظمة والابهة التى وصلت اليها مملكة سبأ .

كذلك كان هناك من العرب مملكة الحيرة ومملكة الغسانيين . وكان فى جزيرة العرب نفسها ملوك من قبيلة كندة ، وكان موطنهم بلاد حضرموت الواقعة فى الجنوب الشرقى .

وكان هناك مملكة « معين » وقد سبقت مملكة « سبأ » فى الظهور وكانت على جانب عظيم من البأس والقوة .

وتلتها فى الظهور مملكة سبأ التى اشتهرت بالثروة والقوة بين ممالك العالم فى ذلك الحين ، وبلغ من قوتها أن ردت جيوش « اوغسطس قيصر » عن اسوار مأرب ودحرتها .

وكان لها تجارة واسعة مع مصر ، وسوريا ، وبابل .. ولا تزال سدودها واحواضها تثير اعجاب الرحالة والسائحين . وتدل آثارها واطلال ابنيتها الفخمة على ما بلغته من العظمة والمجد .

وكان لها اسطول بحرى ينقل تجارتها الى حيث تريد ، كما كان لها قوافل تخترق الصحراء الى الشام وفلسطين لنقل سلعها التجارية

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى جـ ١ .

وكذلك كان هناك مملكتا الحيرة وغسان ، قائمتا على حدود بادية الشام .

وكانت الامبراطورية الفارسية تستعين بمملكة الحيرة على حرب الروم . كما كان الرومان يستعينون بأمراء غسان على الفرس .. !!

وقد استمرت مملكة الحيرة من القرن الثالث الميلادى حتى ظهور الاسلام . وكان لاهلها اثر كبير فى الحضارة العربية . وتعاقب على ملكها خمسة وعشرون ملكا .

ويقول الدكتور احمد سوسة فى كتابه « حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور » .

« تبدأ المرحلة الاولى من حضارة العرب القديمة فى حوالى اربعين الف سنة قبل الميلاد ، وتنتهى فى حوالى ثمانية عشر الف قبل الميلاد . وقد عاشت هذه الحضارة ضمن حدود جزيرة العرب ..

« ... ويرى الخبراء المتخصصون فى شئون البلاد العربية ان الهجرة من جزيرة العرب تمت فى الاصل من منطقة جنوبى الجزيرة . ومنها توجهت الجماعات النازحة من جزيرة العرب الى الشمال ، ثم توزعوا على اطراف الهلال الخصيب فى فلسطين وسورية ومصر والعراق ..

« وفى هذه المرحلة من حضارة العرب استطاعت القبائل العربية النازحة من جزيرة العرب بفضل الحضارة

والخبرة اللتين اكتسبتهما فى وطنها الاصـــلى خـــلال فترة الازدهار من تأسيس الحضارات السامية العربية الكبرى فى مستوطناتها الجديدة .. فأسست هذه القبائل فى مدة قصيرة نسبيا لاتتجاوز ثلاثة آلاف سنة اقدم الامبراطوريات واعظمها مما عرفه تاريخ العالم القديم فى تاريخ البشرية اى الامبراطوريات الساميات الاربع : الاكدية ، والبابلية، والآشورية ، والكلدانية الآرامية ..

« ان الهجرات المتتاليـــة التى انبعثت من جزيرة العـــرب كانت من اهم العوامل فى تقدم الكيان الحضارى فى الشرق الادنى والسير به نحو التطور فى مختلف الميادين الزراعية والتجارية ، والسياسية ، والعسكرية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والدينية . ذلك الكيان الذى انبعثت منه اقدم الامبراطوريات واعظمها فيما عرفه التاريخ ..

« فالجزيرة العـــربية اذن هى بحق مهـــد الحضـــارات الســامية العربية ، فقد قذفت بأبنائها الاشداء الى ماوراء الصحارى .. فهى والحالة هذه الينبوع الذى انبثقت منه جميع الحضارات العربية السامية فى الهلال الخصيب ..
« وكانت مستوطنـــات شعب الجزيرة فى عالمه الجـــديد تؤلف عالما عربيا واحدا يتميز بقوميته العربية تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الاجزاء تضم الجزيرة العربيـــة « الام » وابناءها فى بلاد المهجر ..

« لقد كان هؤلاء العرب بناة اعظم واقـــدم امبراطورية

سامية عرفها التاريخ . وهى الامبراطورية الاكدية التى اسسسها « سرجون » فى القرن الربع والعشرين قبل الميلاد والتى سميت بالاكدية نسبة الى عاصمتها « اكد » « وعندما استقرت الحضارة السامية فى العراق ازدهرت فيه سلسلة متواصلة من الممالك العظيمة لعبت دورا رئيسا وهاما فى تقدم الحضارة الانسانية . .

« ولقد بقيت الحضارة العربية فترة من الزمن بين المد والجزر كونت فى خلالها دولا عربية كدولة الغساسنة فى سورية ، والمناذرة فى العراق ، ودولة الانباط والتدمريين وغيرها من الامارات العربية كامارة كندة ، وامارة الحضر وامارة الرها ، وامارة حمص وغيرها حتى ظهر الاسلام فانبعثت به الحضارة العربية على مستوى اوسع واعم ، وعادت فانبعثت من منبعها الاصلى (جزيرة العرب) واسست دولة عظمى فاقت جميع الدول التى سبقتها بحيث شملت القارات الثلاث (آسيا وافريقيا واوربا) . . وقد حاولت اوربا المسيحية قهر الحضارة العربية الاسلامية وابادتها ولكنها فشلت بعد محاولة استمرت حوالى مائة وخمسين عاما » .

ويختم المؤلف بحثه هذا بكلمة « جورج سارتون » الذى يقول :

« سبق للعرب ان قادوا العالم فى مرحلتين طويلتين من التقدم الانسانى طوال الفى سنة على الاقل قبل ايام اليونان ثم فى العصور الوسطى اربعة قرون تقريبا »

وليس ثمة ما يمنع هذه الشـــعوب من ان تقود العـــالم ثانية فى المستقبل القريب او البعيد » .

* * *

اذن كان هنالك ممالك عربية وحكومات عربية وحضارة عربية ايام كانت « اوربا » وما حولها مغارات وكهوفا ، وظلاما فى ظلام .

واذن ، فالبيئة التى نزل عليها الاسلام كانت ذات ماض عريق وتجربة عريقة وممارسة طويلة الامد مع الحكم والحكومات .

ونحن نعلم ان الاسلام جاء ليحدث تغييرا وتصـــعيدا . تغييرا للباطل ، وتصعيدا وتعلية لكل ما هو ضرورى وحق .

ولم يكن العرب فى عصور الجاهلية الموغلة فى البعد ، بقادرين على ما يعجز عنه اسلافهم فى ظل الاسلام بكل قوته وعظمته ورشده .

وحتى مكة ـــ فيما بعد ـــ والتى لم تكن فيها حكومة ، نجدها قد قامت بتوزيع مسئوليات الحكومة على قبائلها وبيوتاتها وافذاذ رجالها فكانت قوى المجتمع هى التى تحكم وتقود فى تنظيم ناضج وسديد .

والمدينة كانت قبل ذهاب الاسلام اليها تتهيأ لتتويج ملك عليهـــا واذا قام الملك قامت حوله الحكومة على نحو ما . .

وهكذا لم يكن الاســـلام يعمل فى خواء ولا يبـــدأ من فراغ حين يدعو اتباعه لتأسيس حكومة ، بل وحين يبدأ بالفعل فى تأسيس دولة وقف على راسها امام المتقين وخاتم المرسلين وخير خلق الله اجمعين .

— ٣ —

وعندما توجد « امة » تؤلف بينها وحدة اللغة والجنس والدين . . وتوجد الارض او « الوطن » الذى تقطنه هذه الامة . . . . ثم توجد « سلطة عليا » تنظم شئون هذه الجماعة ، فقد وجدت الدولة . .

ولقد توفر هذا كله للامة المسلمة بعد ان استقر مقام المسلمين فى المدينة . فقد كان هناك « امة » هى امة الاسلام . وكان هناك وطن وعاصمة لهذه الامة ، هى « المدينة » . . وكان هناك سلطة عليا تتمثل فى الرسول صلى الله عليه وسلم بما يوحى اليه من ربه وبما تتمخض عنه مشوراته الدائمة مع اصحابه حول كل القضايا والمواقف التى لم يات الوحى فيها ببيان .

وهذه حقيقة لا تقبل المماراة .

يقول المستشرق « هاملتون جب » :

« بعد الهجرة قام فى المدينة مجتمع قائم بذاته منظم على قواعد سياسية تحت قيادة رئيس واحد .

« وقد كانت فكرة الرسول الثابتة عن هذا المجتمع الدينى الجديد الذى اقامه ، انه سينظم تنظيما سياسيا . ولن يكون هيئة دينية منفصلة ومنسدرجة تحت حكومة زمنية » (١)

---

(١) نقلا عن كتاب :
النظريات السياسية فى الاسلام للدكتور ضياء الدين الريس .

ويقول المرحوم الدكتور محمد ضياء الدين الريس (٢) :

« لم يكن هناك اية وظيفة من الوظائف التى يمكن ان يقال عنها انها سياسية — من اعداد الاداة لتنفيذ العدالة ، او تنظيم الدفاع ، أو بث للتعليم ، او جباية للمال ، أو عقد معاهدات ، أو انفاذ سفارات الا كانت هذه الدولة تؤديها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فالمجتمع المسلم فى المدينة اذن كان له دولة يقودها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . دولة لها جيش ، وراية ، وقوانين ، وضرائب ، وكل مقومات الدولة الحديثة . واتسع نطاق هذه الدولة ، وقام صرحها العظيم فى عهد الخلفاء الراشدين . ثم فيما تلاه من عصور وعهود .

ولعلنا لا نجد دينا ، ولا نظرية تتطلب طبيعتهما قيام الدولة كما نجد ذلك فى الاسلام .

فالاسلام دين نظام ، ليس فى نطاق المعاملات وحسب . بل وفى نطاق العبادات . . فالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، كلهما تؤدى وفق نظام حازم وحكيم .

وهو لا يعنى بتنظيم الحياة فى نطاقها الواسع فحسب ، بل وفى اضيق نطاق .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم معلما اصحابه وامته :

« اذا كنتم ثلاثة فى سفر ، فأمروا احدكم » .

---

(٢) نفس المرجع السابق .

اى ، فليختر الثلاثة من بينهم واحدا يكون عليهم « اميرا » ينظم مسعاهم ومسراهم .

فكيف نتوقع من دين يعنى بالامارة بين ثلاثة الا يعنى بها بالنسبة لمجتمع كبير وامة عريضة . . ؟!

ولقد كان اصحاب الرسول رضوان الله عليهم على وعى كامل بهذه الحقيقة ولهذا وجدناهم يتجه اهتمامهم بعد موت الرسول مباشرة الى اختيار الخليفة ، حتى قبل تجهيز الرسول ودفنه !!

* * *

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك ان بناء « دولة الاسلام » واستمرارها جزء من مهمته كنبى ورسول .

بل لعله كان يرى ذلك جزءا من مهام الانبياء والمرسلين ايضا . . فعليه تنزلت الآية الكريمة التى خاطب الله بها نبيه داود عليه السلام:

« يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

فالله سبحانه يخاطب « داود » نبيه بانه خليفته فى الارض يسوس امور قومه ، وينشر العدل ، ويحكم بين الناس بالحق . . افلا يكون « محمد » عليه السلام كذلك نبى دعوة ، وقائد دولة وامة ؟!

والاسلام باعتباره « خاتم » الاديان ، و « صفوة » الشرائع ، لا يمكن ان يحقق ذاته الا بارساء قواعد الدولة التى تحقق اهداف هذا الدين الخاتم .

ومادام المجتمـــع البشرى بطبيعة تكوينه فى حاجة الى دولة او دول تنظم سلوكه وحياته ، فكيف يغفل الاسلام عن تلبية هذه الحاجة الملحة والضرورية . . ؟؟

بل ان الكتب التى ارسلها الرسول الكريم فى السنة السادسة للهجرة الى نفر من اباطرة العـــالم يومئذ وحكامه ، وعلى رأســـهم « هرقل » امبراطور الروم ، و « كسرى » فارس ، و « النجاشى » امبراطور الحبشة ، و « المقوقس » حاكم مصر وغيرهم .

نقول ان هـــذه الخطوة من جانب الرســـول كان لها مغزاها السياسى بعد مغزاها الدينى .

انها تدعوهم الى عبادة الله وتوحيده والدخول فى دينه الخاتم ، ولكن ، لعلها بعد هذا تشير الى ما كان الرسول عليه السلام يعلقه على الاسـلام من امل فى اقامة « حكومة عالمية » تقوم على منهج الدين وقيمه ومبادئه لا سيما بعد ان كشف الله له حجب الغيب يوم الخندق فرأى الاسلام يضىء بصرى والشام والعراق وفارس والروم . . !!

لقد كانت هذه الرؤية لا الرؤيا . التى وقعت يقظة لا منامًا حين كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع اصحابه فى حفر الخندق فاعترضتهم صخرة عاتية ، فتعرض لها الرسول بمعوله وحين انصـــدع جبروتها وطار شررها كبر الرسول ربه وحمده بصوت جهير ، فقد رأى نورا يغمر جنبات الارض ، والقى فى روعه انه نور الاسلام سيضىء البلاد ويهدى العباد .

كانت هذه الواقعـــة فى غزوة الخنـــدق فى السنة الخامسة من

الهجرة وكانت كتـــابته للاباطرة والملوك بعد ذلك بقليل فى الســـنة السادسة للهجرة . . افلا نلمح علاقة بين الموقفين ؟

انه مادام الرسول كان رسول الله للعالمين ، وكان دينه شرعا للعالمين . فلماذا لا تكون النظم التى ارساها هذا النبى وهـــذا الدين منهجا للعالمين سواء كانت نظما سياسية ام اجتماعية ؟

لماذا لا يطمح الاسلام الى « حكومة عالمية » تلتف حول مبادئه وكتابه . . ؟

لقد تحققت نبوءة الرسول التى تنبأ بها يوم الخندق . . وخلال خمسة وعشرين عاما دانت الجزيرة العربية كلها للاسلام ودخل تحت مظلة دولته الكبرى معظم بـــلاد وتخوم الامبراطوريتين الفارســـية والرومانية ثم توالى الفتـــح بعد ذلك حتى صـــارت القوة والزعامة الاسلامية طوال مائتى سنة هى القوة الاولى فى العالم كله .

اجل ـــ بين عامى ٦٥٠ ، ٨٥٠ ميلادية كانت الدولة الاسلامية اقوى واعظم دولة فى العالم .

وفى اقل من ثمانين عاما شملت الفتوحات الاسلامية من الارض والبلاد اكثر من تلك التى ضمتها روما فى ثمانمائة عام . . ! !

ولم تكن فتوحات الاسلام غاشمة ولا ظالمة ، بل كانت رحمـــة وهداية وسلاما . . كانت حروب تحرير وتمـــدين . وليس ادل على ذلك من انه بعد تفكك الدولة الاســـلامية ظل المسلمون قادة الفـــكر والعلم فى العالم لمدة خمسة قرون .

كما انها لم تكن فتوحات عنصرية ، فان الكثيرين من ابناء الدول المفتوحة كانوا يصلون الى اعلى مناصب الدولة . وعندما ترك المسلمون اسبانيا — مثلا — لم يتركوها مهلهلة منهوبة . بل تركوها امبراطورية عظمى بفضل ما كانوا قد اسدوا اليها من حضارة وعمران وثقافة ..

اوكل ذلك ، ثم نقول : الاسلام دين لا دولة .. ؟! اذن فماذا كان كل هذا الفتح العظيم والمد الشامخ ؟؟

— ٤ —

لقد كانت تصرفات الرسول تومىء الى رجل ينشر دعوة ويبني دولة فهو يشكل الجيوش ويجعل عليها امراءها ، وهو يعقد المعاهدات ، ويرسل السفارات ، ويجمع الضرائب — زكاة وجزية — وحين يغادر المدينة عاصمة الدين والدولة يختار اميرا يخلفه فيها ويقوم اداريا وسياسيا ودينيا بكل مهام الرسول عليه السلام . ولقد قام الرسول فى المدينة بكل مسئوليات النبى والحاكم ، واستمر ذلك من بعده بدءا من يوم السقيفة ..

من اجل هذا ، اجمع المسلمون — اهل السنة ، والمعتزلة ، والشيعة ، والمرجئة ، والخوارج الا قلة ضئيلة عرفت باسم « النجدات » اجمعوا جميعا على وجوب نصب « الامام » اى قيام « الدولة » التى ترعى شئون الاسلام والمسلمين .

والاسلام وان يكن دينا شرعه الله سبحانه الا انه فى تطبيقاته الانسانية يمثل « عقدا اجتماعيا » يتضمن قيام سلطة تفى بالتزامات هذا العقد ، وتسهر على تنفيذه .

والمبادىء والتنظيمات التى تلبى كل احتياجات الناس ، والتى اثراها « الفقه الاسلامى » وتفسح فى تبيانها تتطلب شرعا وعقلا وبداهة قيام « سلطة » تؤمن بهذا التراث وتلتزم باحترامه وتنفيذه .

والاسلام يقيس نوع السلطة بنوع قيمه ومبادئه ، فهو لا يقبل اى سلطة تفرضها ظروف مجافية لمبادئه . بل لابد أن يتوفر لهذه السلطة من العدل واحترام الشريعة ما يجعلها جديرة بكونها سلطة اسلامية .

من اجل هذا عرف الفقهاء المسلمون رئيس الدولة المسلمة بانه « يقوم بأمر الحرب والسلم ، وتدبير الجيوش والسرايا وسد الثغور ، وحماية الامة ، والاخذ من ظالمها لمظلومها ، والقيام بكل مصالحها ومهامها السياسية » .

ومن اجل هذا اجمع الفقهاء كما اسلفنا على وجوب قيام الدولة المسلمة .

يقول ابن خلدون :

« ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه فى الشرع باجماع الصحابة والتابعين» .

ويقول حجة الاسلام الغزالى :

« الدين والسلطان توأمان » .

ويقول النسفى فى عقائده :

« والمسلمون لابد لهم من امام يقوم بتنفيذ احكامهم ، واقامة حدودهم ، وسد ثغورهم ، وتجهيز جيوشهم ،

وجمع الزكاة المفروضة عليهم ، وقهر المتلصصة وقطاع الطريق ، واقامة الجمع والاعياد ، وقطع المنازعات القائمة بين العباد » .

ويقول الامام الغزالى أيضا مبينا حاجة الدين والدنيا الى الامام اى الدولة :

« ونظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل اليهما الا بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والاقوات والامن ، ولعمرى من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

« فلا ينتظم الدين الا بتحقيق الامن على هذه الضروريات ومن قضى جميع اوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة ، وطلب قوته من وجوه الغلبة ، فمتى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه الى سعادة الآخرة .

« ... ان الدنيا والامن على الانفس والاموال لا ينتظمان الا بسلطان مطاع . وهذا تشهد له أوقات الفتن .. فما لم يتدارك الامر بسلطان مطاع لدام الهرج وعم الشغب وشمل القحط ، وهلك الناس وبطلت الصناعات وصار كل من غلب سلب ، ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم ان بقى حيا ، والاكثرون يهلكون تحت ظلال السيوف . ولهذا قيل : الدين اساس والسلطان حارس . وما لا اساس له فهو مهدوم ، وما لا حارس له فضائع » (١) .

---

(١) كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد .

وقال الماوردى :

« .. ويجب اقامة امام يكون سلطان الوقت وزعيم الامة ، ليكون الدين محروسا بسلطانه ، والسلطان جاريا على سنن الدين واحكامه » .

وقال الشهرستانى :

« ولابد للكافة من امام ينفذ احكامهم ، ويقيم حدودهم ، ويحفظ بيضتهم ، ويحرس حوزتهم ، ويهيىء جيوشهم ، ويقسم غنائمهم ويتحاكمون اليه فى خصوماتهم ، وينصف المظلوم وينتصف من الظالم ، وينصب القضاة والولاة فى كل ناحية ، ويبعث القراء والدعاة الى كل طرف » . (١)

وقال الايجى صاحب المواقف :

« انا نعلم علما يقارب الضرورة ان مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والمناكحات والجهاد والحدود والمقاصات واظهار شعار الشرع فى الاعياد والجمعات — انما هو مصالح عائدة الى الخلق معاشا ومعادا . وذلك لا يتم الا بامام يكون من قبل الشرع يرجعون اليه فيما يعن لهم » (٢) .

ويقول الجرجانى :

« نصب الامام من اتم مصالح المسلمين ، واعظم مقاصد الدين » .

---

(١) نهاية الاقدام فى علم الكلام نقلا عن كتاب النظريات السياسية الاسلامية . (٢) المرجع السابق .

ويقول ابن تيمية :

« يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين الا بها ، فان بنى آدم لا تتم مصلحتهم الا بالاجتماع بعضهم الى بعض ، ولابد لهم عند الاجتماع من الحاجة الى رأس . حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم « اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » .

« ولان الله اوجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولايتم ذلك الا بقوة وامارة . وكذلك سائر ما اوجبه من الجهاد والعدل ، واقامة الحج والجمع والاعياد ، ونصر المظلوم واقامة الحدود . . وكل ملك لا يتم الا بالقوة والامارة .

« ولهذا روى « السلطان ظل الله فى الارض » . . وكان السلف الصالح كالفضيل بن عياض ، واحمد بن حنبل ، وغيرهما يقولون :

« لو كانت لنا دعوة مستجابة لادخرناها للسلطان » . . (١)

— ٥ —

واجماع المسلمين هذا على ضرورة قيام الدولة المسلمة مستمد مما انتظمه القرآن والسنة من آيات وتوجيهات ، ومن نهج الخلفاء الراشدين الذين قال الرسول عنهم :

---

(١) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية .

« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي . عضوا عليها بالنواجذ » .

كما انه مستمد بعد ذلك من حركة الاسلام خلال التاريخ الطويل أيما من القرآن ، فالقرآن مملوء بالآيات التي تدعو المسلمين الى حكم الله .

والفعل ـــ حكم جاءت مشتقاته فى القرآن بمعنى «الحكومة» التي تقضي وتفصل وتقود .. وجاء بمعنى « الحكمة » .. وجاء بمعنى الاحكام والاتقان .. وجاء بمعنى الغلبة والاقتدار .. فلا يجوز الخلط بين هذه المعاني ، ولا يجوز مثلا حمل آيات الحكم على معاني الحكمة او الاحكام ، او الاقتدار ، لان معنى الحكم فيها واضح ومبين .

فمن آيات « الحكمة » قوله تعالى :

« ويعلمهم الكتاب والحكمة ـــ وما انزل عليكم من
« الكتاب والحكمة ـــ آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة
« وانزل الله عليك الكتاب والحكمة ـــ ادع الى
« سبيل ربك بالحكمة ـــ ذلك مما اوحى اليك ربك
« من الحكمة ـــ ولقد آتينا لقمان الحكمة ـــ واذكرن مايتلى
« فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ـــ وشددنا ملكه
« وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .

ومن آيات « الاحكام » والغلبة قوله سبحانه :

« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم

« الحكيم ـــ فاعلموا ان الله عزيز حكيم ـــ ولو شاء الله
« لاعنتكم ان الله عزيز حكيم ـــ هو الذى يصـــوركم فى
« الأرحام كيف يشـــاء لا اله الا هو العزيز الحكيم ـــ ثم
« ادعهن يأتينك ســـعيا واعلم ان الله عزيز حـــكيم ـــ
« وما النصر الا من عنـــد الله العزيز الحـــكيم ـــ وهو
« القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ـــ وكلمة الله هى
« العليا والله عزيز حكيم .. »

فى هذه الآيات الكريمة يتحدث القرآن عن الحكمة بمعناها .. وعن الاحكام بمعناه .. وعن الغلبة والاقتدار بمعنيهما .

اما لفظ الحكم بمعنى القضاء والفصل وبمعنى الحكومة ايضـــا فقد ذكره القرآن ستا وسبعين مرة (١) وحســـبنا هنا ايراد بعض الآيات التى تشير بوضوح الى ان الاسلام له دولته التى تحكم بما انزل الله والتى تجعل العدل شرعتها ومنهاجها .

يقول القرآن العظيم :

« انا انزلنا اليك الكتاب بالحق ، **لتحكم** بين الناس بما اراك الله .. »

فالقرآن لم ينزل على قلب الرسول ليتعبد به المؤمنون فحسب

---

(١) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم لطيب الذكر المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى .

بل وليكون — اولا — منهجا للحكم يحكم به الرسول امته المسلمة بما اراه الله اى بما رسم له فى هذا القرآن من سبيل وما تنن فيه من قانون .

ويؤكد القرآن هذا الدور لرسول الله قائلا :

« فاحكم بينهم بما انزل الله — وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم » . . .

ثم يؤكد له ضرورة الالتزام بحكم الله فيقول :

« واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك » . .

وليس هذا الخطاب قاصرا على الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هو دعوة مفتوحة لكل مسلم يلى امر المسلمين .

يقول الله تعالى :

« ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها ، واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » . .

والامانات هنا لا تعنى تلك الودائع التى يستودعها بعضنا بعضا فحسب بل تعنى — اولا — مسئولية الحكم التى هى امانة ائتمن الله عليها الحاكمين .

واداؤها الى اهلها يعنى العدل فى تنفيذها والقيام بها ، كما يعنى اشراك الشعب فى هذه المسئولية بكل الوسائل التى تجعل مشاركته فى الحكم مشاركة فعالة وحقيقية .

والحكم بما انزل الله وبما شرع لعباده ، وبناء الدولة التى تلتزم هذا النهج كان من بين وظائف الرسول عليه السلام .

ولم ينزل الله كتابه لنلهو به . بل هو ينقل الينا حكم الله الذى ارتضاه للناس ، ولا يرضى بغيره بديلا عنه .

يقول سبحانه :

« والله يحكم لا معقب لحكمه » . .

ليس هنـــاك من يفرض رايه على حـــكم الله مهما تكن عبقريته وقوته .

ويؤكد العلى الكبير هذا المعنى فى هذه الآيات الكريمة :

« ذلكم حكم الله يحكم بينكم ـــ ان الحكم الا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين ـــ الا له الحكم ـــ ان الحكم الا لله ، امر الا تعبدوا الا اياه ـــ ان الحكم الا لله عليـــه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » .

ويرفض القرآن ويدحض كل افتيات على حكم الله وكل عدول عنه الى حكم وضعى مريج . فيقول :

« ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون ـــ ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون ـــ ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون » . .

ويوبخ القرآن اولئك الذين ينحرفون عن حكم الله الىحكم البشر

« افحكم الجاهلية يبغون ؟ ! ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ ! » .

ويضع حدا فاصلا بين المؤمنين المخبتين الذين اذعنوا لحكم الله

وارتضوا تشريعه وقانونه ، وبين الضالين الذين عموا وصموا عما انزل الله من كتاب . .

فيقول عن الاولين :

« انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا : سمعنا واطعنا » .

ويقول عن الآخرين :

« واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون » .

ويعلم الرسول ان يقول لاولئك المعارضين والمعترضين :

« افغير الله ابتغى حكما ، وهو الذى انزل اليكم الكتاب مفصلا » .

اجل . . كيف يبتغى المؤمنون حكما غير حكم الله وهو الذى انزل اليهم كتابا مفصلا ومحكما وتبيانا لكل شىء ، وارسل اليهم خاتم انبيائه ورسله يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويدعوه ويدعوهم بقوله :

« وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه الى الله » .

ان هذه الآيات التى سلفت ، يكشف القرآن بها عن أن للاسلام دورا غير هداية الناس ، هو دور الحكم والحاكم الذى يحمى ذمارهم ، وينظم حياتهم عن طريق دولته التى يجب أن تقوم وان تبقى ما بقى فى الدنيا اسلام .

ودستور هذه الدولة ماثل فى كتاب الله ، وسنة الرسول ، واجماع الامة . .

واجماع الامة يتشكل وفق ما فى القرآن والسنة من أحكام .

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم . فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ... »

والقرآن فى الدولة المسلمة هو أبو القوانين فيها . وسنتحدث عن هذا الموضوع ان شاء الله عند حديثنا عن شكل الدولة المسلمة وكيف تنهض وتقوم .

أما الآن وقد تلونا الآيات القرآنية التى تعلمنا أنه لابد للاسلام من امام يحكم ودولة تقوم ، فلنتجه صوب السنة النبوية لنطالع رأيها فى هذه القضية .

— ٦ —

ونحن حين نطالع آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول الخاصة بقيام الدولة فى الاسلام ، لا نلتقى بآية ولا بحديث يقول : يا أيها الذين آمنوا أقيموا دولة أو اتخذوا منكم اماما وحاكما ، تماما كما لا نلتقى بآية تقول أو بحديث يقول : يا أيها الذين آمنوا تنشقوا الهواء ..!! ذلك أن القضية من البداهة بحيث لا تتطلب أمرا بها ودعوة اليها انما يتجه القرآن وتتجه الاحاديث النبوية مباشرة الى الحديث عن شكل هذه الدولة ومقاييسها وأخلاقياتها وعن المسئوليات المتبادلة بينها وبين الامة.

ان قيام دولة فى أى أمة أمر بدهى تتطلبه طبائع الاشياء وتقتضيه سنن الاجتماع البشرى .

وهذا ما ادركه الامام على بفطرته وذكائه حين قال :

« لابد للناس من امارة ـــ برة كانت أو فاجرة . .

« قيل : يا أمير المؤمنين ، هذه البرة قد عرفناها ، فما بال الفاجرة . . ؟؟

« قال : يقام بها الحـــدود . . وتؤمن بها الســـبل . . ويجاهد بها العدو . . ويقسم بها الفيء . . »

فقيام الدولة ايا كان لونها أمر ضرورى بقدر ما هو بديهى .

وانما كان اهتمام القرآن والسنة بالنهج الذى تقوم عليه الدولة فى الاسلام ـــ أى بمميزات وخصـــائص وسمات الدولة المسلمة . فاذا قال القرآن للرسول « احكم بينهم » فانه يتبعها بقوله « بما انزل الله » . . واذا قال له « لتحكم بين الناس » اتبعها بقوله : « بما اراك الله »

ومعنى هذا ان الاسلام ينشد نوعا معينا من الدول والحكومات . هو الذى يلتزم بتعاليمه ومبادئه وتقاليده .

وتعالج احاديث الرسول الاكرم الموضوع بشمول ووضـــوح . ولنبدأ بهذا الحديث العجيب .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من مات وليس له امام ، مات ميتة جاهلية » .

والمراد بالامام فى الاسلام اذا اطلق ، « الحاكم » أى « الدولة » فأى توكيد لدورها ، بل أى تقديس أكثر من هذا الذى نرى ؟!

لا يحق لاى انســان رشيد أن يعيش فى الفلاة كالحمر الوحشية

ليس له مجتمع يؤويه ولا دولة تحميه . . ومهما يبالغ المسلم فى الفرار بدينه من الفتن ، فلابد أن يكون له انتماء يربطه بأمته ودولته . والا عاش آبقا ، ومات — كما قال الرسول — ميتة جاهلية .

أن الدين الذى يقول رسوله هذا الحديث لا يمكن أن يتجاهل قيام الدولة . بل لابد أن تكون الدولة اصلا من اصوله الراسخات .

ثم لنطالع هذا الحديث للرسول عليه السلام :

« كانت بنو اسرائيل تسوسهم الانبياء عليهم السلام . كلما هلك نبى خلفه نبى . . وانه لا نبى بعدى . وسيكون بعدى خلفاء فيكثرون . .

« قال اصحاب الرسول : فما تأمرنا ؟؟

« قال : أوفوا بيعة الاول . . . »

فهنا يحفظ الرسول الدولة المسلمة من الانشقاق والتصدع ، ويبين انها ثمرة « البيعة » و « الشورى » بدليل قوله عليه السلام « أوفوا بيعة الاول » .

ولكأنما كان الرسول يقرأ ويطالع مستقبل الدولة المسلمة ، وما ستتعرض له من فتن واختناقات . بل لقد طالع هذا المستقبل فعلا حين قال :

« الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك » .

يقول الصحابى راوى الحديث « لقد حسبنا خلافة ابى بكر ، وخلافة عمر ، وخلافة عثمان ، وخلافة على فوجدناها ثلاثين سنة » .

ويأمر الرسول باحترام بيعة الامة للخليفة الذى تختاره بكامل مشيئتها ويدعو الى رفض من نازعه الامر بغير حق وسلطان ويحكم بتجريمه بل بقتله . . يقول عليه السلام :

« من اتاكم وامركم جميع على رجل واحد يريد ان يشق عصاكم او يفرق جماعتكم ، فاقتلوه » !!

ومرة اخرى نلفت النظر الى قوله عليه السلام « وامركم جميع » اى ان الامام القائم ثمرة اجماع من الامة على تنصيبه واختياره . وتقوم الدولة بكل مسئولياتها تجاه الأمة .

يقول عليه السلام :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالامام راع ومسئول عن رعيته . . . »

والحاكم المسلم يكرس حياته لخدمة الامة واصلاح حالها وامرها وهو لهذا لا يغيب قط عن قضاياها ومشكلاتها . . بل لا يغيب عن حاجة اى فرد من افرادها .

يقول عليه السلام :

« من ولاه الله شيئا من امور المسلمين ، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله تعالى دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة » . .

والحاكم عادل ومقسط .

« ان المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين — الذين يعدلون فى حكمهم واهليهم وماولوا »

والدولة المسلمة لا تخدع الامة ولا تغشها ولا تعاملها بظاهر جميل يخفي باطنا قبيحا .

يقول عليه السلام :

« ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة » .

والحاكم المسلم وجميع ولاته على الاقاليم مسئولون امام الله ثم امام الناس عن سلوكهم ، وعن مدى التزامهم بتعاليم الاسلام الحنيف

والحاكم مسئول من ولاته الذين يجب ان يختارهم وفق راى الاسلام فيهم ، لا وفق هواه .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من ولى من امر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو اصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

ويقول امير المؤمنين عمر بن الخطاب مؤكدا معنى الحديث :

« من ولى من امر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة او قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمسلمين » .

يقول الامام ابن تيمية (١)

« ويجب على كل من ولى شيئا من امر المسلمين ان يستعمل فيما تحت يده فى كل موضع اصلح من يقدر

---

(١) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية .

عليه . ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية ، بل يكون ذلك سبب المنع .

« فان عدل عن الاحق الاصلح الى غيره ، لاجل قرابة بينهما او صداقة او موافقة فى بلد او مذهب او طريقة او جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية ، او لرشوة يأخذها منه ، أو غير ذلك من الاسباب ، او لضغن فى قلبه على الاحق والاصلح ، او عداوة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ودخل فيما نهى الله عنه بقوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون .

« . . ان الوالى الذى يؤدى الامانة مع مخالفة هواه يثبته الله ويحفظه فى اهله وماله بعده . . والمطيع هواه يعاقبه الله بنقيض قصده ، فيذل اهله ويذهب ماله .

« . . قال بعض الناس لامير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : يا امير المؤمنين افقرت (افقرت) افواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شىء لهم ، وكان فى مرض موته . فقال : ادخلوهم على ، فادخلوهم فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال : يا بنى ، والله ما منعتكم حقا هو لكم وما كنت لآخذ اموال الامة فادفعها اليكم . . وانما انتم احد رجلين « اما صالح ، فالله يتولى الصالحين . . واما غير صالح فلا اخلف لكم ما تستعينون به على معصية الله . .

ثم يقول ابن تيمية رضي الله عنه :

« فبارك الله له فى ولده واغناهم حتى ان احدهم تبرع فى

احدى الغزوات مع الروم بمائة فرس للمجاهدين .

« حدث هذا من عمر بن عبد العزيز وهو خليفة المسلمين من اقصى المشرق ببلاد الترك الى اقصى المغرب بالاندلس .. ومن جزيرة قبرص وثغور الشام الى اقصى اليمن .. ولقد كان نصيب كل من ابنائه من تركته وميراثه اقل من عشرين درهما .

بينما كان هناك احد الخلفاء ، اقتسم بنوه تركته فكان نصيب كل فرد منهم ستمائة الف دينار .. ومع ذلك فقد كان بعض هؤلاء الابناء يتكففون الناس بعد ما اصابهم من فقر وفاقة » ...

اجل — الحاكم وولاته مسئولون عن الامة ثبات وجميعا ..

والامانة والتعفف هما مقياس صلاحية الحاكم والولاة . والذين تصلهم باموال الناس وظيفة ومنصب فان مسئوليتهم عن الامانة تفوق كل تقدير ..

ان الذى يرى الرسول وهويواجه خيانة من مال الشعب أوسفها فى انفاقه ليرى أمرا عجبا .

فهذا الرسول الرحيم العظيم الذى طالما التمس المعذرة ورجا رحمة الله للخطائين يقف امام الخيانة او التجوز فى مال الامة وكانه لا حيلة له ابدا . ولاول مرة نراه يستحى ان يسأل ربه المغفرة لآثم . ذلك لان الآثم هذه المرة خائن ، خان مال الامة وهو عند الله اثم مبين .

اهدى رفاعة بن زيد للرسول عليه السلام خادما .. وفى غزوة

وادى القرى اصابه سهم وهو ينزل رحل الرسول ، فاقبل الصحابة على الرسول يعزونه ، ويقولون : هنيئا له يا رسول الله فقد مضى شهيدا فاجابهم الرسول قائلا :

« وما يدريكم ..؟ ان الشملة التى اخذها من المغانم يوم خيبر ، لتشتعل عليه نارا » ... !!

شملة .. شمله تساوى درهما او بضعة دراهم يطارد اثمها آخذها حتى وان مات شهيدا .

الا انه لولاء للامانة ليس له نظير .. !!

ان كل قرش يناله وال او موظف او حاكم خلسة او جهرة دون ان يكون له فيه حق لهو غلول وخيانة .

يقول الرسول عليه السلام :

« من استعملناه على عمل ، فرزقناه رزقا ، فما اخذ بعد ذلك فهو غلول » .

ان العلاقة بين الوالى والامانة تبلغ فى احاديث الرسول عليه الصلاة والسلام مبلغا عظيما من التقديس .. فهو — مثلا — يرفض رفضا مطلقا ان يقبل الوالى او الموظف هدية — مهما تكن — جزاء عمل اداه يدخل فى نطاق واجبات ولايته ووظيفته . ان هذا يفتح بابا خلفيا للخيانة والتفريط فى الحقوق العامة .

وقف عليه السلام خطيبا ذات يوم وقال :

« اما بعد ، فانى استعمل الرجل منكم على عمل مما ولانى الله .

« فياتى ويقول : هذا لكم ، وهذا اهدى الى . .
هلا جلس فى بيت ابيه حتى تأتيه هديته ان كان صادقا .؟
« والله لا يأخذ احد منكم شيئا بغير حقـــه الا لقى الله يحمله يوم القيامة . . اللهم قد بلغت » . . . !!

ان الرسول ليتحدث عن « امانة الحكم » باهتمام عظيم ، ويلقى تعاليمه الهادية المضيئة الى الحكام ، والولاة ، والقضاة ، والى كل من يحمل مسئولية فى الدولة .

يقول عليه السلام عن الامارة :

« انها امانة ، وانها يوم القيـــامة خزى وندامة ، الا من اخذها بحقها ، وادى الذى عليه فيها » .

ولان الحكم « امانة » ومسئولية عظمى لا يتهالك عليها الا جاهل بفداحتها ، ولقد كان الرسول عليه السلام يرفض ان يولى احدا ولاية او امارة يسألها ويرنو اليها .

ذهب احد اصحابه يوما يسأله ان يوليه احدى الولايات ، فقال:

« انا والله لا نولى هذا الامر احدا يســأله أو احدا يحرص عليـــه » . . !!

ويوصى عبد الرحمن بن سمرة قائلا :

« يا عبد الرحمن ، لا تسأل الامارة ، فانك ان ســـألتها وكلت اليها . . وان اعطيتها بغير مسئلةاعنت عليها » (١)

---

(١) راجع كتابنا ـــ كما تحدث الرسول .

قد يكون رفض الحكم أمرا ميسورا للرجل الورع ، لكن الصعب بالنسبة اليه هو تقلد الحكم ، وتحمل مسئولياته الشداد .

ومن المريح لك ان تضع عن كاهلك الحمل الثقيل الذى يؤود الاشداء من الرجال ، ولسكن الصعب جدا ان تحمله وتمضى به السنوات الطوال ..

لذلك لا نجد المتهافتين على السلطة الا من بين النهمين لشهوات الدنيا من منصب ومال وجاه والفارغين عقولا وافئدة .

ولعل خير تعبير عن هذه الحقيقة يتمثل فى قول الامام على كرم الله وجهه :

« أما والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا ما اخذ الله على العلماء الا يقاروا على كظة ظالم ، وسغب مظلوم ، لالقيت حبلها على غاربها ، وسقيت آخرها بكأس أولها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطة عنز » ..!!

وكان يوما يخصف نعله ومعه ابن عمه عبد الله بن العباس ، فسأله الامام على :

ـــ ما قيمة هذه النعل ؟؟

قال ابن عباس : لا قيمة لها ..

قال الامام : والله لهى أحب الى من امرتكم ، الا ان اقيم حقا ، او ادفع باطلا .. !!

* * *

واختيار الدولة لولاتها يجب ان يتم وفق مقاييس الاسلام . المتمثلة فى ان يكون الوالى كفؤا وعدلا وصادقا وأمينا . . ولاة ينصحون الدولة ولا يغشونها ، يواجهون الحاكم ولا يتملقونه . يخلصون للحق ويجعلون ولاءهم له من دون الناس .

يقول الرسول عليه السلام :

« اذا اراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صدق : ان نسى ذكره . . وان ذكر اعانه . .

« واذا اراد به غير ذلك ، جعل له وزير سوء : ان نسى لم يذكره . . وان ذكر لم يعنه » .

اذن فاختيار الولاة الاكفاء من صالح الحاكم قبل أن يكون من صالح الامة ، والحاكم الذكى ، ، والوالى الذكى ايضا هو الذى لا يبيع دينه بدينا غيره . .

ان الدولة تقف بكل مؤسساتها على الهوة الفاغرة والمنزلق الوعر اذا هى اسندت أمورها لغير الاكفاء والامناء . . واذا هى آثرت المنافقين والجبناء .

واذا كان اختيار الولاة الصالحين واجب الحاكم ، فان اختيار الحاكم الصالح واجب الامة .

وهذا ينقلنا الى الحديث عن شكل الدولة المسلمة وكيف تتشكل وتقوم .

* * *

— ٧ —

اذا القينـــا نظرة على العـــالم حوالينا الفينا الدولة فى كل بلد انعكاسا للمبادىء والنظريات السياسية التى يمارسها ذاك البلد .. وتتحكم الاوضاع الاقتصادية الى حد كبير فى تشكيل نوعية الدولة ، ورسم خصائصها .

والدولة المســـلمة لا تخرج عن هذه القـــاعدة . فهى انعكاس لمبادىء الاسلام وقواعده وخصائصه .

واول ما يواجهنا ونحن نتحرى هذه الخصائص والمبادىء ، مبدأ الشورى ..

فالاسلام دين الشورى بكل ما تحمله الكلمة من معنى وشمول . وبالتالى فان شكل الدولة القائمة باسمه المســـتظلة برايته لابد ان يكون « شوريا » وقد تنزل القرآن على الرسول يأمره امرا واضحا وواجبا ان يدير أمور أمته عن طريق الشورى فيما لم يأت القرآن فيه بحكم صريح .

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه :

« فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضـــوا من حولك . فاعف عنهم ، واســـتغفر لهم ، وشـــاورهم فى الامر .. فاذا عزمت فتوكل على الله » .

ويلفت الامام الرازى انظارنا الى معنى رائع تعطيه هذه الآية الكريمة . ذلك انها نزلت فى اعقاب « غزوة احد » تلك الغزوة التى لم يكن النبى يرى فيها الخروج من المدينـــة لملاقاة قريش خارجها . بيد

ان الاغلبية من اصحابه راوا غير ما راى ، فنزل النبى على رايهم . وخرج على راس جيشه لملاقاة جيش الشرك ودارت الحرب عند جبل احد . وحدث فيها ما حدث للمسلمين من محن شداد .

فى اعقاب هذا الذى حدث نزلت الآية الكريمة تقول للنبى عليه السلام :

« وشاورهم فى الامر » .

اى لا تجعل ما ظهر من خطأ رايهم سببا لتجنبك الشورى ، فان الخطأ مع الشورى اسلم من الصواب مع التفرد بالراى . . !!

وهذا الموقف بين الله ورسوله لا غرابة فيه ولا عجب ، مادام الرسول انما بعث ليعلم الناس ويهديهم سواء السبيل . . ان سواء السبيل هنا وفى هذا المجال هى الشورى التى لا تعرف الملل ولا الاستعلاء .

اجل . . نزل الوحى عليه بعد ما حدث له ولعمه حمزة ولاصحابه بسبب الشورى ما حدث . نزل ليامره بالمزيد من الشورى . . . !!

ولقد حذق الرسول الكريم الدرس الذى لقنه الوحى اياه ، فعاش يقدس الشورى فى كل امر ، ويرسخ ذلك فى روع اصحابه .

فيقول لهم :

« ما تشاور قوم قط الا هدوا لارشد امرهم » .

ويصفه صاحبه ابو هريرة رضى الله عنه فيقول :

« لم يكن احد اكثر مشـــورة لاصحابه من رســـول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولقد مضى ســـلوك الرسول على هـــذا النهج من الاهتمـــام بالشورى واخضاع كل قراراته لها حتى فى اشـــد المواقف واكثرها حرجا وتجهما . . .

ولنضرب لهذا مثلا آخر :

فى غزوة « الخنـــدق » وهى تكاد تكون اخطر الغـــزوات التى واجهها الرسول والمسلمون . اذ اقبلت قريش ومن تبعها من اعراب كنانة وتهامة فى عشرة آلاف مقاتل شديدى المراس ومعهم يهود بنى النضير . ومن الداخل كان هناك يهود بنى قريظة نقضوا عهدهم مع رسول الله وانضموا الى الغزاة .

ويكفى فى تصوير هذا الموقف الرهيب ان نستمع لكلمة القرآن فيـــه :

« اذ جاءوكم ـــ اى الاعداء ـــ من فوقكم ، ومن اسفل منكم
« واذ زاغت الابصـــار ، وبلغت القلوب الحنـــاجر ،
« وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » . . !!

فى هذا الموقف الصـــاعق راى النبى ان يقلل من عـــدد مهاجميه وذلك بان يصرف « غطفان » عن هذه الحرب وعن حلفها مع قريش . وفكر عليه السلام ان يرسل الى قائدى غطفان ، ويعرض عليهما ثلث ثمار المدينة وغلتها على ان ينسحبا من الجيش المهاجم ويرجعا بقومهما

وفى هذا الهول لم ينس الشورى ، فعرض الامر على سادة الاوس والخزرج فى المدينة فابوا هذا الصلح واعتبروه اذلالا لهم وهوانا فنزل عليه السلام عقد رايهم مسلما امره الى الله ومترقبا بركة الشورى .. ولقد كانت مباركة حقا ، فقد هزم اليأس جيش قريش وحلفائها ، وسخر الله ريحا وعواصف اقتلعت خيامهم واطفأت نارهم وكفأت قدورهم واذهلتهم عن انفسهم فصاح فيهم «ابو سفيان» صيحة الفرار والخذلان واليأس وانقلبوا الى مكة صاغرين .

* * *

وكان عليه السلام يقول لابى بكر وعمر :

« لو ذهتما لرأى ما خالفتكما » .

ليس احتراما للشورى وحسب . بل ولأن الشيخين اصبحا بصوتيهما يشكلان اغلبية تجاه الصوت الواحد ، وان يكن صوت الرسول ... !!

ولقد جعل الله سبحانه احترام الشورى من اثمن خصال المؤمنين وصفاتهم . قال تعالى :

« وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون .. والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، واذا ما غضبوا هم يغفرون .. والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة ، **وامرهم شورى بينهم** ، ومما رزقناهم ينفقون » ..

ولقد اخذ الخلفاء الراشدون بواجب الشورى فى حزم ويقين .

ويحدثنا « ابن القيم » نقلا عن التابعى الكبير «ميمون بن مهران» انه قال :

« كان ابو بكر الصديق اذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى ، فان وجد فيه ما يقضى به قضى به .. وان لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فان وجد ما يقضى به قضى به . فان اعياه ذلك سأل الناس : هل علمتم ان رسول الله قضى فيه بقضاء . فربما قام اليه القوم فيقولون : قضى فيه بكذا ، وكذا .. فان لم يجد سنة سنها رسول الله جمع رؤساء الناس فاستشارهم . فاذا اجتمع رايهم على شىء قضى به « وكان — عمر — يفعل ذلك ... » (١)

فحكومة ابى بكر وعمر لم تكن كما يتصور البعض حكومة « مستبد عادل » .. ولقد عرضت لدحض هذا الراى فى مقدمة كتابى « وجاء ابو بكر » ، وقلت : ان الذين يرون فى ابى بكر وعمر مستبدين عادلين انما يجانبون الصواب .

اولا ، لانهما لم يكونا مستبدين ساعة من نهار .

وثانيا ، لانه ليس هناك شىء اسمه « المستبد العادل » .

فالاستبداد والعدل ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يلتقيان . وان

---

(١) اعلام الموقعين جـ ١ .

احدهما ليختفى فور ظهور الآخر ، لان ابسط مظاهر العدل أن ياخذ كل ذى حق حقه . . واذا كان من حق الناس — وهذا مقرر بداهة — ان يختاروا حياتهم وحكامهم ، ويقرروا مصايرهم ، فان ذلك يقتضى فى نفس اللحظة ولنفس السبب اختفاء الاستبداد .

ولقد كان « ابو بكر ، وعمر » رضى الله عنهما على بصيرة من هذا . وعلى الرغم من انهما والامة معهما كانا خاضعين خضوعا مطلقا لما انزل الله من كتاب فقد أتاحا للمسلمين كل فرص المناقشة والمعارضة والاختيار .

ربما يذهب الظن بالبعض الى ان « ابا بكر ، وعمر » لم يكونا حاكمين ديمقراطيين لانه لم يكن بجوارهما تلك المؤسسات الديمقراطية الحديثة من برلمان ودستور ومعارضة وصحافة حرة .

بيد ان وضع المسألة على هذا النحو يشكل خطأ كبيرا . . وانما يستقيم الفهم اذا نحن اجبنا عن هذا السؤال :

— هل كان غياب هذه المؤسسات الديمقراطية التى عرفها العالم حديثا ، هل كان غيابها عن الدولة المسلمة يومذاك راجعا الى كفران الخليفتين بهذه المؤسسات ؟!

والجواب بيقين : لا — وغياب هذه المؤسسات لا يعنى اكثر من كونه تعبيرا عن نظم ذلك العصر البعيد فى جزيرة العرب بل وفى معظم بلاد العالم منذ الف واربعمائة عام .

لقد حقق الخليفتان على اوسع مدى الجوهر الحى للديمقراطية

من خلال ايمانهما العميق بكرامة الانسان ، ومن خلال الاشكال والتطبيقات التى كانت تلائم عصرهما .

- فاذا كانت الدولة المسلمة فى عهديهما لم تشهد قيام معارضة برلمانية منظمة لفقدان ذلك فى بيئتهما وعصرهما ، فان المعارضة نفسها كانت تمارس بأسلوب فعال وعميم .
- واذا كانت الدولة يومئذ لم تشهد قيام برلمان يراقب الحاكم ويشرع القوانين ، فان الشورى يومئذ كانت شعيرة من شعائر الله ، وكانت حقا مقدسا للجماعة كلها .
- واذا كان التطور يومئذ لم يهيىء قيام صحافة حرة ، فان الكلمة الصادقة الشجاعة كانت على كل لسان . يصغى الخليفة اليها، ويثيب عليها .. !!

ولو ان الخليفتين العظيمين « ابا بكر ، وعمر » يحكمان فى عصرنا هذا لاعطيا التجربة الانسانية فى النظام الديمقراطى الرشيد كل احترامهما ، ولانتفعا بها الى ابعد مدى ، ولاخذا من اشكالها الحديثة ما يحقق جوهرها ويعبر عن خصائصها .

صحيح ان ذلك لم يكن سيتم بصورة مطلقة . بل كان سيتم داخل ايمانهما المطلق بالدين الذى آمنوا به واتبعوه .. على انه مع وجود هذا التحفظ لن ينقص ذلك من قدرهما كحاكمين ديمقراطيين .

ذلك ان اى حاكم ديمقراطى انما يعمل داخل حدود الدستور العادل القائم فى دولته .

وابو بكر وعمر كانا يعملان داخل حدود الدستور القائم فى دولتهما ..

لقد كان للقرآن فى امتهم من الولاء والاجلال والهيمنة اكثر مما للدساتير فى كل دول الدنيا .

ولقد تضمن القرآن العظيم مزيتين من اعظم مزايا الديمقراطية:

اولاهما ـــ انه جعل الشورى واجبا مفروضا فى دولة الاسلام .

وثانيتهما ـــ انه لم يلزم بطاعة احكامه واعتناق مبادئه الا من يقره ويختاره ويؤمن به .. اى بلغة عصرنا الحديث : « من يقترع عليه بالموافقة » !!

اما الآخرون الذين لم يؤمنوا به من اهل الكتاب ـــ يهود ونصارى ـــ فلهم ان يعيشوا وفق عقائدهم ، ويختاروا اسلوب حياتهم .

صحيح ان القرآن « دستور » لم يضعه الشعب ، ولكنه دستور رضيه الشعب ، وآمن به واقترع عليه ، واستشهد فى سبيله

فالمسلمون الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وساروا معه آمنوا بان القرآن وحى من عند الله وعليهم طاعته ، ولم يكرههم احد على الايمان به .

ولقد حمل « الصديق ابو بكر » بعد الرسول مسئولية قيادة الامة وفق هذا الايمان .

ثم حمل « الفاروق عمر » المسئولية بعد ابى بكر وفق هذا الايمان ايضا .

واذن فالمعيار الصحيح الذى يوزن به حكمهما وديمقراطيتهما هو مدى احترامها لهذا القرآن .. لهذا الدستور ، الذى آمن به المسلمون واختاروه قانونا ومنهجا لحياتهم .

* * *

ولقد تحدث الفقهاء طويلا عن كون الشورى ملزمة ام غير ملزمة اى هل ينتهى دور الشورى عند ابلاغ الخليفة او الحاكم بها ثم له بعد ذلك ان ياخذها وان يرفضها .. وبهذا تكون غير ملزمة .. ؟ ام انها ملزمة وواجب على الحاكم الاخذ بها .

وعندى انها ملزمة ، ثم ملزمة ، ثم ملزمة .. ولو لم تكن كذلك لما كان من ورائها جدوى ولا فائدة ..

لانه اذا كان المراد من الشورى تقليب وجهات النظر وصولا الى الصواب ، فان فى الوحى غناء عن هذه المحاولة . ولن يعقل ان يتخلف الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موقف خطير كموقف الحرب فى غزوة احد وغيرها .

واذا كان الغرض من الشورى مجرد ترضية شكلية للمسلمين فان فى ذلك احباطا وتثبيطا ، بل واهانة للشورى وللمستشارين يجل عنها مقام الرسول .

اذن يتعين ان يكون المراد من الشورى تمكين الامة من حقها فى ان يكون لها راى محسوب فى تقرير مصايرها ، ويكون هذا الموقف بين الرسول والمسلمين مقصودا لتدريب الامة على يد رسولها وقائدها .. تدريبها على ممارسة حق الشورى الذى هو من اهم واجل حقوقها .

ثم ان مواقف الرسول وخلفائه من الشـــورى تدحض الراى القائل بعدم الالزام .

ان الرسول الذى كان معه الوحى يصبحه ويمسيه ، أمره الله واوجب عليه أن يشاور اصحابه .. ورأينا كيف خضـــع للشورى فى اشد المواقف هولا وضراوة .

* * *

ولكن ماذا تعنى « الشـــورى » بلغـــة عصرنا الحـــديث الذى نعايشه ولا نستطيع عنه فكاكا . وقديما قيل ، ولعله حديث نبوى .

« الناس بزمانهم ، أشبه منهم بآبائهم » .

ما الشكل الذى يجب على الدولة المسلمة ان تكونه وفقا لمبدأ الشورى ، ومتابعة لروح العصر .. ؟!

هل يكفى اليوم ان يكتفى الحاكم بمشاورة اهل الحل والعقد ، والشعب هناك قابع فى مسكنة وضياع كالمقعد الضرير .. ؟!

ومن هم اهل الحل والعقد .. ؟!

ان هذا السؤال يرفض كل تجاهل له ، ويدحض كل جبن عن مواجهته .

وعندى ان المفهوم الحديث للشورى التى زكاها الاسلام هى : الديمقراطية البرلمانية ..

ان ينتخب الشـــعب نوابا عنه يمثلون ارادته ومشـــيئته ، ويختارون او يختار الشعب كله معهم الحـــاكم الذى يراس الدولة ويقودها ـــ ويكون هؤلاء النواب حراسا على حقوق الامة لدى الدولة

يؤيدون الحاكم اذا صلح ، ويقاومونه او يعزلونه اذا زاغ وانحرف .

وهؤلاء النواب عندى هم « اهل الحل والعقد » لا سيما اذا طعم المجلس النيـــابى فى امة ما ببعض الكفايات المتخصصـــة ولو بالتعيين المحدود .

وهـــذه الديمقراطية تفتح ذراعيها للمعارضـــة داخل المجلس وخارجه عن طريق البرلمان والصحافة وكل وســـائل الاعلام ، فان الديمقراطية بلا معارضة تعنى الديمقراطية بلا ديمقراطية ... !!

وقديما قلت :

« ان افضل علاج لاخطـــاء الديمقراطية ، هو المزيد من الديمقراطية » ...

هذه حقيقة نود للمستمسكين بالدولة الاســـلامية ان يعـــوها جيدا .. فلا يقوان احدهم : نظام دولتى الشورى ثم يمضى !! لابد من ترجمة هذه الكلمة الى منهج سياسى مفصل ..

ولقد افضى بى البحث الى أن الشورى هى اليوم «الديمقراطية البرلمانية » ولا تزيد ..

ولن يكون ثمة حـــرج ولا بأس ان نحن اضـــفنا الى تراثنـــا السياسى بعض النظم السياسية المعـــاصرة ، فان مجرد استخدام الاسلام لها وتدثيرها بجوهر مبادئه سيجعلها اسلامية ، كما اصبحت بعض الكلمات الاجنبية فى القرآن عربية بمجرد استخدام القرآن لها.

ان الحكم فى الاسلام ليس حكما مطلقا ، ولا تســـلطا وقهرا . ولكنه حكم شورى . حكم ديمقراطى بأصدق معانى هذا التعبير .

وهو فى نفس الوقت عقد بين الله والحاكمين ان ينشروا الايمان ويقيموا العدل ، ويكونوا امناء على مصالح الناس ومصايرهم .

* * *

وبالتفسير الذى اسلفناه للشورى ندرك فى وضـــوح ان الحاكم ليس ملاكا يتنزل على الناس من الســـماء .. انما هو بشر ، ومواطن يختاره الشعب بكامل حريتـــه ومحض ارادته ليحفظه ويقـــوده وفق الدستور والقانون .

ورئيس الدولة فى الاسلام ، ليس من يشغل منصـــبه بالتعيين ولا بالوراثة ، ولا بالعهد الذى لا تقره الامة وترضاه .

ذلك أن الامامة لا تنعقد لاحد الا بالاختيار والاتفاق .

قال علماء الفقه « الامامة عقد » فالبيعة شرط اساسى لقيـــام رئيس الدولة .. اذ العقد يكون دائما بين طرفين ، والطرف الاول لعقد الامامة هو الامة (١) .

يقول البغدادى فى كتابه « اصول الدين » :

« قال الجمهور الاعظم من اهل السنة ومن المعتزلة ومن الخوارج ان طريق ثبوت الامامة هو الاختيار من الامة » .

ولهذا نجد ان الامام عندما يريد ترك الامامة فليس ثمة من يملك حق اعفائه سوى الامة ، وهـــذا يدل على انهـــا هى التى تملك حق توليته ـــ هذه نظرية الاسلام .

---

(١) النظريات السياسية الاسلامية .

فالامامة او الخلافة هى حق الامة ، والامة فى الاسلام هى مصدر السلطات .. وهى بمجموعها او عن طريق نوابها المنتخبين منها التى تختار رئيس الدولة الذى لن يكون اكثر من وكيل للامة يصرف امورها وشئونها .

وقد يبدأ اختيار الامام من اهل عاصمة البلاد التى سيحكمها ، ولكن ذلك لا يكفى ، بل يتبعه بيعة الامة كلها بنفسها أو بنوابها .

يقول الماوردى (١) :

« وليس لمن كان فى بلد الامام على غيره من اهل البلاد فضل مزية .. وانما صار من يحضر ببلد الامام متوليا لعقد الامامة عرفا لا شرعا لسبق علمهم بموته ، ولأن من يصلحون للخلافة فى الاغلب موجودون فى بلده » .

ويقول ايضا :

« ان عقد الامامة عقد مراضاة واختيار ، لا يداخله اكراه ولا اجبار » .

وهناك تعريف رائع للامام قاله الامام « احمد بن حنبل » عندما سئل عن معنى قول الرسول عليه السلام : من مات وليس له امام مات ميتة جاهلية ـــ فقال احمد :

« أتدرى من الامام ؟؟

« الامام هو الذى يجمع عليه المسلمون . كلهم يقول : هذا امام » ..

---

(١) الاحكام السلطانية .

ولابد لتوضيح هذا الامر من الرجوع الى عهد الخلفاء الراشدين لتوضح بعض ما عساه ان يبهم علينا .

فالخليفة الاول « ابو بكر الصديق » رضى الله عنه تم اختياره لا تعيينه . اذ لم يعهد الرسول لاحد بالخلافة من بعده — وفى هـذا اشارة واضحة الى انه عليه السلام احتفظ للامة بحقها فى الاختيار .

تمت الخلافة لابى بكر بالبيعة من بعض المسلمين يوم السقيفة ومن بقيتهم فى اليوم الثانى ، ثم توالت البيعة من الأنحاء . . صحيح ان « عمر بن الخطاب » هو الذى بدأ بالبيعة وصمم عليها . ولكن ذلك لا يعنى انها كانت بيعة فرد بل كانت بيعة امة . بيعة المهاجرين والانصار الذين كانوا قد بايعوا الرسول من قبل وآزروه ونصروه .

يقول ابن تيمية فى كتابه « منهاج السنة » .

« لو ان سر وطائفة معه بايعوا ابا بكر ، وامتنع سائر الصحابة عن البيعة لم يصر ابو بكر اماما بذلك — وانما صار اماما بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم اهل القدرة والشوكة » . .

وكذلك يقول الامام الغزالى : (١)

«ولم يبايع ابا بكر غير عمر، وبقى كافة المسلمين مخالفين او انقسموا انقساما متكافئا لا يتميز فيه غالب عن مغلوب لما انعقدت الامامة » .

---

(١) الرد على الباطنية — نقلا عن النظريات السياسية الاسلامية .

وامير المؤمنين « عمر » نفسه يدرك ذلك ويحض الامة على ان تحتفظ بحقها فى الاختيار .. وفى الخطبة الشهيرة التى القاها عقب عودته من موسم الحج قال :

« .. فمن بايع رجلا من غير مشورة المسلمين ، فانه لا بيعة له هو ولا الذى بايعه » .

* * *

فان عهد الامام القائم بالأمر لآخر من بعده — كما فعل ابو بكر مع عمر — فلابد من توافر شروط الامامة فيمن يعهد وفيمن يعهد اليه من امانة ونزاهة وكفاءة وورع واخلاص .. ثم لابد من توثيق هذا العهد برضاء الامة او الاغلبية منها واقراره .

اما توريث ابن او قريب غير صالح للامامة ، وليس معه من شروطها وصفاتها شيء ، الا ما يصله بالموصى من قرابة او صهر ، فهذا مناف لروح الاسلام ووجهته .

يقول ابن خلدون (٢) :

« واما ان يكون المراد بالعهد حفظ التراث على الابناء فليس من المقاصد الدينية ، وينبغى تجنبه خوفا من العبث بالمناصب الدينية » .

وعلينا ان ندرك جيدا ان اختيار ابى بكر لعمر لا يعنى فقدان العامل الديمقراطى فى اختيار الخليفة .

---

(٢) المقدمة

فأبو بكر اختار عمر لا بصفته الشخصية ، بل بوصفه خليفة نبوا منصبه هذا باقتراع الامة عليه واختيارها اياه ، فكأنه نقل بيعة الامة منه الى من اختاره .. ثم انه اختار اصلح المسلمين لهذا المنصب فى تلك الظروف .. ثم انه قبل اختياره استشار جمهرة الصحابة وقادتهم .

يقول الطبرى فى تاريخه (١) :

« ان ابا بكر لم يكتب عهده لعمر الا بعد ان استشار كبار الصحابة وهم قادة الراى وموضع ثقة الامة فاثنوا كلهم على عمر . وقال عثمان بن عفان : [اللهم ان علمى به ان سريرته خير من علانيته ، وان ليس فينا مثله]

« ولما اتم استشاراته اشرف على الناس فقال لهم : [أترضون بمن أستخلف عليكم .. ؟] فانى ما الوت من جهد الراى ، ولا وليت ذا قرابة ، فقالوا سمعنا واطعنا »

ثم ، وهذا هو الاهم فان جميع المسلمين فى شتى الانحاء وافقوا يومئذ على تنصيب عمر خليفة ولم يقم احد بالاعتراض مع قدرتهم على ذلك لو ارادوا بدليل ما حدث فى اواخر عهد عثمان .. وكذلك لم تكن بيعة « عثمان » من الستة الذين اختارهم « عمر » لترشيح الخليفة واختياره . بل كان .. وهنا نترك الحديث لابن تيمية الذى يقول :(٢)

« ان عثمان لم يصر اماما باختيار بعضهم ، بل ببيعة الناس له . وجميع المسلمين بايعوا «عثمان بن عفان» ولم

---

(١) الجزء الاول : (٢) منهاج السنة .

يتخلف عن بيعته احد . . قال الامام احمد : ما كان فى القوم من بيعة عثمان كلفت باجماعهم . والا لو قدر ان عبد الرحمن بن عوف بايعه ثم لم يبايعه على ولا غيره من الصحابة اهل الشوكة لم يصر اماما .

« ثم ان ابن عوف حلف انه اقام ثلاثا لم يغتمض فيها بنوم يشاور السابقين الاولين والتابعين لهم باحسان ، ويشاور امراء الانصار فاشار عليه المسلمون بولاية عثمان . وقدموا عثمان وبايعوه ، لا عن رغبة أعطاهم اياها ، ولا عن رهبة اخافهم بها » .

وايا ما يكن الامر ، فان روح الاسلام وروح ما اسلفنا من وقائع ثم روح العصر الذى نعيش فيه تحتمان قيام البيعة لرئيس الدولة بالشورى والاقتراع الحر الذى تيسرت اسبابه فاصبح من المستطاع معرفة راى الامة فيمن تختاره لرئاستها وتقترع عليه فى يومين او ثلاثة مهما يبلغ تعدادها وتتسع رقعتها .

وعلى اختيار الشعب لحاكمه يتوقف مستقبله القريب والبعيد

ومن الظواهر الصادقة انه كلما كانت الامة عالية فى مستواها الحضارى ، كان اختيارها لحكامها صائبا وسديدا .

والاسلام يعلمنا ان سوء اختيار الحاكم ايذان بضياع الامة . .

يقول عليه السلام :

« اذا وسد الامر الى غير اهله فانتظر الساعة » .

اى اذا ولى الحكم فى امة من الامم من ليس اهلا له ، فانتظر ساعة هذه الأمة تدق معلنة ضياعها وهلاكها ... !!

والحاكم المسلم يحقق أمرين لابد منهما — القدوة الصالحة ، والعدالة الشاملة .

انه يرث رسول الله فى منصبه كقائد دولة ، لهذا كان حتما عليه أن يسير على نهج الرسول ما استطاع الى ذلك سبيلا .

ويصف الامام على الحاكم المسلم فى شىء من التفصيل فيقول :

« لا ينبغى أن يكون الوالى على الاعراض والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين بخيلا ، فتكون اموالهم نهمته .. ولا جاهلا ، فيقتلهم بجهله .. ولا جافيا ، فيقطعهم بجفائه .. ولا خائفا من الدول ، فيتخذ قوما دون قوم .. ولا مرتشيا فى الحكم ، فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع .. ولا معطلا للسنة ، فيهلك الامة » ...

وللدولة المسلمة طاعة ابنائها مادامت متحققة بالدين الذى اقامها ودعا الناس لطاعتها .

يقول عليه السلام :

« اسمعوا واطيعوا ، وان استعمل عليكم عبد حبشى كان راسه زبيبة ، ما اقام فيكم كتاب الله » .

ويقول عليه السلام :

« على المرء المسلم السمع والطاعة فيما احب وكره الا ان يؤمر بمعصية ، فان امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

اجل ما اقام فيكم كتاب الله .. اى ما احترم الدستور الذى تحيا عليه وتدين به الدولة المسلمة .

فاذا فسق الحاكم وبغى وظلم فلا سمع له ولا طاعة . بل ولا بيعة . وعلى الامة ان تنبذه وتخلعه .

ذلك ان الدولة كلها وسلطاتها الثلاث جميعا — التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية — كل هؤلاء امناء على حكم الله وعلى مشيئة الشعب .

واى نوع من الحكم يعطل كتاب الله الذى هو دستور الدولة المسلمة ويتحدى ارادة الامة ، ويودى بسيادة القانون فلا حرمة له ولا ذمة ولا بقاء .

ولا تنتهى مهمة الامة باختيار الحاكم ، بل تبدأ بهذا الاختيار . وتذهب معه كل مذهب ، وتراقبه وتعاونه على البر والتقوى، وتزجره عن الخيانة والانحراف .

وهذا يتاتى بوجود راى عام قوى ونكى .

والراى العام فى الدولة المسلمة ضرورة مفروضة ، لانه صمام الامان ، والعين الثاقبة ، والكلمة الطيبة .

والراى العام ، هو ما اسماه القرآن والاسلام [الامر بالمعروف والنهى عن المنكر] .

اجل — هذا هو ما نسميه اليوم بلغة العصر « الراى العام » . ذلك ان وظيفة الراى العام هى متابعة احداث المجتمع ومراقبة جميع

سلطاته ، وتسليط الضوء على الاخطاء السياسية والاخلاقية ، والاجتماعية ، ومقاومة كل تحد للدستور والقانون ، وتبصير الآخرين من فئات الشعب بواجبهم تلقاء المواقف والاحداث .

وهذه تماما هى وظيفة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر . ودور الراى العام فى الدولة المسلمة دور ترشيد وبناء .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ان الله يرضى لكم ثلاثة :

« أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا » .

« وان تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

« وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » .

ويقول عليه السلام :

« الدين النصيحة .. قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ولرسوله ، ولائمة المسلمين وعامتهم » ..

ويقول ايضا :

« ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم :

- اخلاص العمل لله
- ومناصحة ولاة الامر
- ولزوم جماعة المسلمين » .

فالنصح للحاكم اول وظائف وواجبات الراى العام .. وكلما كان الراى العام مهذبا جاءت نصائحه مهذبة . فالنصح شىء آخر غير التشهير به والحقد عليه .

واذا توجه الراى العام بنصحه فلوى الحاكم جيده وثنى عطفه، فان ذلك لا ينبغى أن يفت فى عضـــد الناصحين بل عليهم أن يتشبثوا بكلمتهم ويرددوها كالنشيد ، ويذيعوها بين الناس حتى يتكون حولها راى عام يصبح قادرا على ابلاغها واخضاع الحاكم لها .

وكل حاكم يضيق بالراى العام ويحاول خنقه فهو فى نظر الاسلام معطل لشريعة من شرائع الله وفريضـــة من فرائضـــه .. تلك هى فريضة « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

لقد كرم الله هذه الامة المحمدية لانها تحيى شعيرة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال تعالى :

« كنتم خير امة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

واهان ولعن قوما آخرين لانهم تخلوا عن فريضة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال سبحانه :

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لســـان داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون » .

وقال عن احبارهم الذين صمتوا عن كلمة الحق :

« لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم واكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » .

ووقف خليفة رسول الله أبو بكر يوما خطيبا فقال :

« سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان

الناس اذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يده اوشك ان يعمهم الله بعقاب » .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر . او ليوشكن الله ان يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » .

الى هذا المدى يزود الاسلام دولته ومجتمعه برأى عام فعـــال ويار ونشيط . .

وكما قلنا ، فان محاولة الدولة احباط هذا الرأى العام وواده يمرضها لمقت الله وســـخرية الناس ويحق عليهـــا المقاومة وضرورة التغيير .

ان الاسلام يدرك ان الحياة الانسانية مكتظة بالخطايا والاخطاء ويدرك أن الله لم يعط انسانا الحقيقة وحده مهما أوتى من بســـطة فى العلم والذكاء .

ويدرك ان السلطة المطلقة مفسدة مطلقة . . من اجل هذا راح يحاصرها ـــ ان صح هذا التعبير ـــ برأى عام يقظ ومخلص ورشيد . ينهنه من كبرياء السلطة ويطامن من غرورها . فاذا تنكر الحاكم لهذا الرأى العام واحتال على اسكاته بالكذب والخديعة ، أو بطش به غير مبق عليه ولا مكترث به فقد حرم نفسه قبل ان يحرم الامة من النور الذى يضيء له الطريق .

والدولة كما نعلم ، تقف على راس التنظيمات السياسية للامة

ولكى ينهض من حولها راى عام يساندها اذا صلحت ، ويقومها اذا انحرفت ، فلابد لهذا الراى ان يكون متمرسا بكل مشاكل الامة وقضاياها وعلى وعى عميق بها .. ولابد ان يكون له من الفكر السياسى نصيب موفور . اذ كيف يكون له رأى فى القضايا السياسية دون ان يكون له علم بها ؟!

ومن هنا نرى ان الاسلام عبادة وسياسة .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .

فالمسلم الذى يقضى نهاره صائما ، وليله قائما ، ثم ينفض يديه من مشكلات امته ، ويتخلى عن واجبه المحتوم فى الاهتمام بأمر الامة المسلمة لا يكون منها ولا يحسب عليها .

يقول عليه الصلا قوالسلام :

« لان امشى فى حاجة اخ لى حتى تقضى احب الى من ان اعتكف فى مسجدى هذا شهرا » .. !!

هذا فى حاجة فرد .. فكيف بحاجات امة ، ومشكلات مجتمع ، وسياسة دولة .. ؟ !!

— ٨ —

والدولة الاسلامية دولة دستورية لها دستور ينظم حياتها السياسية ، ويكفل حقوق الأمة عليها وحقوقها على الأمة . ولها قوانين سائدة ومتطورة فى حدود علاقاتها بالدستور .

ودستور الاسلام هو القرآن ، والسنة ، والاجماع .

القرآن اولا .. ثم تاتي السنة والاجماع ومعهما الاجتهاد ليفصلوا من القرآن ما أجمل ، ويوضحوا ما أحكم . ويأتي الفقه الاسلامي فيضع القوانين المستنبطة من كتاب الله ، وسنة رسوله . واجماع أمته ويثري الاسلام اثراء هائلا وعظيما .

والقرآن دستور الدولة المسلمة يمتاز عن كل دساتير الدنيا ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها بانه ليس من صنع البشر ، بل تنزيل من حكيم حميد .

وهو بهذه المثابة فوق كل محاولة للتمرد عليه او التغيير فيه . ثم هو بهذه المثابة ايضا اكثر دساتير البشر تمكينا للاستقرار والرسوخ مع قابلية فذة وذكية لكل مسايرة لروح العصر وتطور الانظمة ، وان الانسان ليقع في حيرة شديدة كلما راى حكومات اسلامية ومجتمعات اسلامية تتخذ القرآن مهجورا ..!!

ان دستور الدولة الاسلامية هذا فوق كل عصيان او مخالفة .. هذا هو مكانه الذى بواه الله اياه .. حتى الرسول الذى انزل عليه لا يملك مخالفته او تغييره .

ونحن نعلم ان وجود حكومة ما يعني ان هناك قانونا يطاع ويسود . فوجود حكومة اسلامية يعني اول ما يعني اجلال دستورها والخضوع لقوانينها .

ولقد جاء الاسلام بدستوره الالهى « القرآن » ثم وسع الفقه الاسلامي كما ذكرنا من قبل دائرة التقنين والتشريع بحيث فصل وقنن كل علاقة للفرد بنفسه، وبأسرته، وبجيرانه، وبمجتمعه، وبحكومته ، وبعالمه الفسيح كله .. وقبل هؤلاء جميعا وطد علاقة الانسان بربه .

واذا كان تحكيم الدستور وطاعته واجب الأمة ، فهو اولا وقبلا واجب الحاكم .

فالحاكم المسلم الذى لا يحكم الدستور القرآنى ، يصعب جدا الاعتراف له بأنه حاكم مسلم .

لقد ربط القرآن طاعة اولى الامر بطاعة الله ورسوله فقال :

« اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم » .

ولعله لحكمة ما ، لم يقل : واطيعوا اولى الامر منكم اذ اعتبر طاعتهم امتدادا لطاعة الله ورسوله مادام حكمهم امتدادا لشريعة الله ومبادىء رسوله .

من اجل هذا كانت اول كلمات استقبل « ابو بكر الصديق » بها المسلمين اثر مبايعته :

« اطيعونى ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

ومعنى هذا ان الحاكم المسلم الذى يعصى الله فى حكمه ، ويجحد قرآن ربه ، يوقع فى نفس الوقت وثيقة عزله . .

ومن اجل هذا رأينا « الفاروق عمر » يستهل اللحظات الباكرة من خلافته بسؤال وجهه الى حشود المبايعين :

« ما تقولون اذا ملت براسى هكذا ؟؟ » .

فيجيبه احد الصحابة وقد انتضى سيفه وشق به الهواء :

« اذن نقول بالسيف هكذا » !!

فيتهلل وجه « عمر » ويقول :

« الحمد الله الذى جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » . . !!

ارايتم . . ؟؟

ان الرجل الذى يتحدث بهذه الكلمات هو الذى سيورثه الله عما قريب ملك كسرى وقيصر .

الرجل الذى كان اصحابه يرقبون ابتسامته ترقب الاهلة من طول كظمه شفتيه خوفا من الله وتوقيرا له ، وفرقا من مسئولياته ان يزل فيها او ينوء بها .

والرجل الذى خلق ليقود عالما ، والذى رزق طبيعة تقتلها الراحة ويغريها العمل بالعمل (١) .

هذا هو الرجل الذى يتهلل وجهه ويتلألأ الحبور على جبينه عندما يرى سيفا يلوح به صاحبه وهو يقول لامير المؤمنين :

« اذن نقول بالسيف هكذا » !!!

* * *

ولماذا نعرض عن القرآن ؟؟

لماذا نتهيب الحكم به والتسليم له ؟؟

---

(١) راجع كتابنا « بين يدى عمر » طبعة دار المعارف .

انستطيع أن نحكم أنفسنا بخير منه ؟؟ ايستطيع عباقرة التشريع ان يتفوقوا عليه ، ويأتونا بأفضل منه ؟؟

هذا الذى نقل الينا كلمات الله عنه فقال :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » .

« ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه » .

« كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور »

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » .

« أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » .

انه دستور لا يزاحم ولا ينافس ولا يضاهى به سواه وليس أمام الدولة المسلمة اى خيار فى ان تأخذ بعضه وتذر بعضه . وان فعلت اصابها تأنيب الله وهو يقول :

« افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض . . ! ؟

« فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا

« ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب ، وما الله »

« بغافل عما تعملون » . . !!

كل ما تحتاجه الحياة ويحتاجه الناس من توجيهات ونظم وقوانين وآداب موجود فى اسلامنا . . موجود فى قرآننا العظيم . . وليس ثمة ما يدعو الى هجر القرآن ، ولا الى هجر الاسلام اللذين ارتضاهما الله لنا كتابا ودينا .

— ٩ —

ولكن ما منهج الدولة المسلمة فى العلاقات الدولية . . ؟

وهل هى دولة حرب ام دولة سلام . . ؟

اما منهجها فى العلاقات الدولية فتوضحه آية من آيات دستورها « القرآن » تلك التى تقول :

« لا ينهـــاكم الله عن الذين لم يقـــاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم . ان الله يحب المقسطين

« انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، واخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فالدولة المسلمة مأمورة من ربها ، ومدعوة من دستورها الى أن تقيم تعايشا سلميا بينها وبين كل دولة لا تقدم اليها الأذى ولا تحوطها بالمؤامرات .

ووفق الآية الســـالفة ، فان كل من لم يقاتلنـــا فى ديننا ، ولم يخرجنا ـــ نحن المسلمين ـــ من ارضنا ، ولم يظاهر غيره على اخراجنا فله مودتنا الخالصة وتعاوننا الوثيق .

وبالعكس ، فان كل من يقاتلنا فى ديننا ويخرجنا من ارضنا ، أو يظاهر الذين يخرجوننا ، فليس له الى مودتنا ولا الى صداقتنا سبيل .

هذا هو موقف الدولة المسلمة من العالم الذى حولها توضحه الآية الكريمة فى ايجاز مبين .

والهيئات الدولية التى تقوم والمواثيق الدولية التى تنشأ تأخذ الدولة المسلمة مكانها بينها وتحمل تبعاتها منها ، فلا تهدم بنيانا ولا تحنث بعهد وميثاق ، ذلك أن دستورها يأمرها :

« يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » .

« واوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا » .

ولقد انشأ الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدات كثيرة تميزت بنشدانها السلام وتوكيدها على المشاركة العادلة فى خدمة المتعاقدين ولم يحدث ابدا ان نكث الرسول بعهد اعطاه او موثق امضاه .

ويصلنا الحديث بالسؤال الذى طرحناه آنفا :

هل الاسلام دين حرب ام دين سلام ؟

وعندى أن الجواب الصحيح هو أن الاسلام دين عدل . . فعندما تكون الحرب عدلا وتحقيقا للعدل فهو دين حرب . وعندما يكون السلام هو العدل فهو دين سلام .

لا يجبن عن نصرة الحق ، ولا يهرب من تبعات السلام . . والمهم هو سلوك الآخرين . ماذا يريدون للاسلام . الحرب ام المسالمة . . ؟؟

لقد قال الله لنبيه ، وهو فى نفس الوقت امر للدولة المسلمة :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها . وتوكل على الله . انه هو السميع العليم » .

وامره وامر الدولة حيث تكون بان تقف موقف الحذر من الذين :

« ان يثقفوكم يكونوا لكم اعداء ، ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء . وودوا لو تكفرون » .

ونحن اذ نتتبع آيات القتال فى القرآن — دستور الدولة المسلمة — نجد ان اول آية نزلت آمرة بالقتال والجهاد كانت هذه الآية :

« اذن للذين يقاتلون — بفتح التاء — بانهم ظلموا . وان الله على نصرهم لقدير » .

« الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » .

وكم هو رائع هذا التعبير « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا — بضم الظاء — .

ان اول آية نزلت فى القرآن تبيح القتال وتاذن للمسلمين بمجاهدة عدوهم ، تمنحنا الفهم بان المسلمين كانوا ممنوعين من حمل السيف ضد عدوهم لعله يرتدع ويتذكر ويخشى ويثوب الى رشده بما يلقونه به من حلم ومصابرة . فلما غشا بغيه واشتدت على المسلمين وطأته ، اذن للذين يقاتلون بانهم اى لانهم ظلموا . .

فهنا قوم مظلومون مضطهدون ، ورغم قدرتهم على القتال فهم مدفوعون عنه وممنوعون منه حتى جاءهم الاذن من الله الذى هو على نصرهم قدير .

وهذه الآية تبين طبيعة الحرب فى الاسلام ووظيفتها . فهى حرب دفاع ، لا حرب غزو واستعمار وقهر وتسلط .

To: www.al-mostafa.com

وكذلك الآيات التى انزلت خلال تطور المجابهة العسكرية بين الاسلام والشرك . بين المسلمين واعدائهم تلتزم نفس الغاية : الدفاع عن النفس . . والدفاع عن حق الانسان فى اختيار عقيدته وايمانه ونوع حياته ، وحقه فى دعوة الآخرين من بنى البشر الى ما يرى فيه صلاح أمرهم .

فالآيات تقول :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

وتقول :

« فان قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم » .

وتقول :

« ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

كل هذه الآيات نزلت تدعو المسلمين الى الدفاع عن انفسهم ، والى قتال من يقاتلهم ، فلما احتشد اهل مكة مع قبائل العرب واليهود مصممين على الخلاص بالحرب من الاسلام ورسوله نزلت الآية الكريمة:

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

ونزلت الآية الكريمة :

« وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » .

لقد نبأ الله المسلمين بنوايا المشركين واليهود تجاههم فقال :

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » ..

« ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فاولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة . واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » .

امام هذا الجموح العنيد من اعداء الاسلام . وامام اصرارهم على افناء المسلمين لا يخجل الاسلام من ان يكون دين حرب وقتال . بل عندئذ يعد الجهاد فى سبيل الله فريضة على المسلمين ويدعوهم ان يهبوا حاملين الراية منتضين السيوف طامحين الى احدى الحسنيين النصر ، او الشهادة ..

وهو — اعنى الاسلام — لا يترك عندئذ فرصة لجعل المسلمين مقاتلين مستبسلين الا اغتنمها ودق طبول الحرب عندها .

« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

« الذين آمنوا ، وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله . واولئك هم الفائزون »

« يا ايها النبى حرض المؤمنين على القتال » .

« .. واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، واخرجوهم من حيث اخرجوكم » .

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالاخرة » .

« ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما » .

« فاما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » .

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن . ومن اوفى بعهده من الله » .

« ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص » .

« فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى اذا

اثخنتموهم فشدوا الوثاق . فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها » . .

اجل — لا يسوء الاسلام ولا ينتقص من قدره ان يكون دين حرب وقتال اذا جوبه بعداوة حاقدة وهجوم مسلح من اعدائه واعداء نبيه .

لن يدع الاسلام اهله يقفون مكتوفى الايدى وهم يذبحون ، ولن يأمرهم ان يديروا خدهم الايسر لمن يلطم خدهم الايمن ، لان هذه مثالية لم ترق اليها بعد طبيعة الانسان .

بل من قاتلك نقاتله . . ومن قتلك فاقتله .

« ولكم فى القصاص حياة » .

« قاتلوهم ، يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » .

* * *

اننا حين نتتبع غزوات الرسول لا نجده قد خرج فى واحدة منها بادئا بقتال . .

- كانت غزوة « بدر » دفعا للمشركين الذين جاءوا يقتحمون على المسلمين حياتهم الجديدة فى المدينة . .
- وغزوة « احد » كانت دفعا للهجوم الكاسح الذى شنه المشركون الذين جاءوا فى ثلاثة آلاف مقاتل ، بينما خرج الرسول بألف رجع

ثلثهم من منتصف الطريق بتحـريض زعيم المنـافقين عبد الله بن ابي بن سلول .

- ويجيء قوم الى الرسول يرجونه أن يرسل معهم وفدا من اصحابه يعلمون قومهم القرآن والاسلام . وفى الطريق غدروا بهم وقتلوهم فكانت غزوة « بنى لحيان » .

- لقد قتل المجرمون نفرا من خيار اصحاب الرسـول . ولما علموا بخروج الرسول اليهم هربوا وتمنعوا فى رءوس الجبال وعلى الرغم من انه لم يدر قتال ، فقـد تعلم خصوم الاسـلام أن دم المسلم ـ أى مسلم ـ غال وعزيز .

- ويحاول اليهود من بنى النضير اغتيال الرسول عليه السـلام ، فيخرج اليهم ويحـاصرهم .. حتى اذا توسـلوا اليه أن يتركهم يغادروا المدينة الى خيبر سمح لهم بذلك مع علمه تماما أنهم فى « خيبر » سيحرضون عليه قريشا و القبائل .

- وقد حدث هذا فعلا ، فقد ذهب يهود بنى النضير هؤلاء يحرضون على الرسول قريشا وسائر العرب ، ويحزبون ضـده الاحزاب حتى فوجىء المسلمون ذات يوم بعشرة آلاف مقاتل يهـاجمون المدينة ـ وكانت هذه غزوة « الخنـدق » التى رد الله المشركين واليهود بغيظهم مدحورين .

- وفى غزوة الخندق هذه قام جمـاعة أخرى من اليهود ، هم يهـود بنى قريظة بخيـانة بشعة مولين ظهـورهم لما كان بينهم وبين الرسول من عهد .وكانت خيانتهم هذه تودى بالاسـلام وبالمسلمين فكان لابد من تأديبهم . وهكذا كانت غزوة « بنى قريظة » .

● ولا يكاد الرسول والمسلمون يستريحون حتى تأتيهم الانباء بأن بنى المصطلق قد خرجوا لحربهم تحت قيادة الحرث بن ابى ضرار ، فكان لابد من ملاقاتهم وهكذا كانت غزوة « بنى المصطلق » التى هزم فيها الجيش المعتدى هزيمة ساحقة .

● ولا يكف اليهود عن التآمر ضد الرسول والاسلام ، ولا يقنون عن الدس والارجاف . وغرتهم مصابرة الرسول لهم . بل ومحافظته على كل حقوقهم واحترام شعائرهم فحشدوا جموعهم للاغارة على المدينة . وتزعم هذه المحاولة يهود خيبر ، فاضطر الرسول للخروج اليهم واسكات صوتهم الى الابد . .

● وتوجس الروم من الاسلام خيفة ، وصاروا يرون فيه خطرا يهددهم لا سيما فى بلاد الشام التى يستعمرونها والتى تتاخم بلاد هذا الدين الجديد . وهكذا راحوا يتخذون من الشام مركز شغب ووثوب وتجرأ حلفاؤهم الغساسنة على قتل الرسول الذى بعثه النبى اليهم بكتاب يدعوهم فيه الى الاسلام ، وازداد تحرش الروم وتنمرهم وراحوا يحشدون جيشهم على الحدود فلم يكن بد من أن يخرج المسلمون اليهم وكانت هذه غزوة « مؤتة » .

● وينقض أهل مكة معاهدة الحديبية المبرمة بين الرسول وبينهم رغم ما اعطاهم الرسول فيها من تنازلات كادت تعصف بايمان بعض المسلمين . ومع هذا ففى السنة الثامنة للهجرة نقضت قريش عهدها ، واغارت على حلفاء الرسول الذين استنصروا به فلم يكن بد من نصرتهم وهكذا كان فتح مكة العظيم . . !!

● ولا يكاد الرسول يتهيأ للراحة قليلا حتى يناجأ بعد خمسة عشر

يوما من فتح مكة بقدوم هوازن وثقيف فى جيش لجب يريدون قتال الرسول والمسلمين ، فكان لابد أن يخرج للقائهم ، وهكذا كانت غزوة «حنين» ثم حصار الطائف .

● ثم لا يمر الا زمن وجيز حتى يفاجأ الرسول بحشود هائلة من الروم تتجمع على حدود فلسطين لقتال المسلمين ، فكان لابد ان يخرج الرسول اليهم على راس جيش عظيم ـ وهكذا كانت غزوة « تبوك » التى هى آخر غزواته عليه الصلاة والسلام والتى انتهت دون قتال .

فاين فى ذلك كله روح العدوان ؟! اين حب المغامرة الشريرة والقتال الباغى .. ؟!

الا ان الاسلام دين القتال ما كان القتال عدلا .. ودين السلام ما كان السلام عدلا .

والدولة المسلمة مأمورة بالتزام هذا النهج دون افراط ودون تفريط .

— ١٠ —

ودولة الاسلام حصن حصين للاقليات التى تعيش معها وبين مواطنيها ، لا سيما حين تكون هذه الاقليات أهل كتاب أو أهل ذمة كما يسميهم الاسلام .

ان الدولة الاسلامية مأمورة من الله ومن رسوله برعاية حرماتهم وحفظ حقوقهم ، وتركهم أحرارا فى العيش وفق معتقداتهم

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من قتل معاهدا ، حرم الله عليه الجنة » .

ويقول عليه السلام :

« من ظلم معاهدا ، او انتقصه ، او كلفه فوق طاقته ، او اخذ منه شيئا بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيامة » .

وعن العرباض بن سارية السلمي رضى الله عنه يقول :

« نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين . وكان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرا ، فاقبل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ايحل لكم أن تذبحوا حمرنا ، وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا . . ؟

« فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن عوف . اركب فرسك ثم ناد : ان الجنة لا تحل الا لمؤمن وان اجتمعوا للصلاة ، فاجتمعوا ثم صلى بهم عليه السلام ثم قام فقال : ايحسب أحدكم متكئا على اريكته يظن ان الله تعالى لم يحرم شيئا الا ما فى القرآن . . ؟!

« الا واني والله قد وعظت وأمرت ونهيت عن اشياء انها لمثل القرآن .

« وان الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت اهل الكتاب الا باذن ولم يحل لكم ضرب نسائهم ، ولا اكل ثمارهم اذا اعطوا الذى عليهم » !!

فالاسلام يحفظ حقوق المواطنين جميعا مسلمين كانوا ، ام يهودا او نصارى واذا كان يفرض على اليهود والنصارى « الجزية » ، فكما يفرض على المسلمين « الزكاة » كلتاهما ضريبة تؤدى لبيت المال . بل ان المسلم يدفع الزكاة ويحارب ويتحمل كل مشاق القتال اما الذمى يهوديا كان او نصرانيا فانه لا يحارب ولا يخرج لقتال . . !!

وحين نطالع على سبيل المثال بعض المعاهدات التى حررها رسول الله عليه السلام وخلفاؤه من بعده لاهل الكتاب نرى عجبا . .

فلليهود يقول الرسول فى عهده لهم ومعهم :

« ان يهود بنى عوف امة مع المؤمنين . . لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم — مواليهم وانفسهم الا من ظلم واثم ، فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته » (١)

ثم يعدد الرسول بقية اليهود الذين لهم مثل ما لبنى عوف من عهد .

وفى عهده لنصارى نجران يقول عليه السلام :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب امان من الله ورسوله للذين اوتوا الكتاب من النصارى — من كان منهم على دين نجران ، او على شىء من نحل النصرانية كتبه لهم محمد بن عبد الله رسول الله الى الناس كلفة . ذمة لهم من الله ورسوله وعهدا عهده الى المسلمين من

---

(١) كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة . جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى .

بعده . عليهم ان يعوه ويعرفوه ويؤمنوا به ويحفظوه لهم « ليس لاحد من الولاة ، ولا لذى شـــيعة من الســـلطان وغيره نقضه » .

ثم يفصل حقوق النصارى فى كتاب آخر وعهد آخر وفيه يقول:

« ... للسيد الحارث بن كعب ، ولاهل ملته ، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية فى شرق الارض وغربها .. اعطيهم عهد الله وميثاقه ان احفظ اقاصـــيهم ، واحمى جانبهم ، واذب عنهم وعن كنائســـهم وبيعهم وبيـــوت صلواتهم وان ادخلهم فى ذمتى وامانى ، ولا يهدم بيت من بيوت بيعهم ، ولا يدخل شىء من بنائهم فى شىء من ابنية المساجد ولا منازل المسلمين فمن فعل ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسوله » .

والميثاق طويل فليراجعه من يشاء فى مصدره (١) وهو ميثاق يزخر بانبل ما فى الانسانية من عاطفة ، واعظم ما فى الحياة من وفاء ورحمة وصدق ونبل .

وعندما بويع « ابو بكر » جدد العهد لنصارى نجران كرة اخرى:

« هذا ما كتب به عبد الله ابو بكر خليفة محمد رســـول الله صلى الله عليه وسلم لاهل نجران .

« اجارهم بجوار الله ، وذمة رسوله على انفســـهم ، وارضهم ، وملتهم ، واموالهم ، وحاشيتهم ، وعبادتهم ،

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة

وغائبهم ، وشاهدهم ، وأساقفتهم ، ورهبانهم ، وبيعهم ،
وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير » . .

وكذلك فعل « عمر » فى العهد الذى أعطاه لنصارى المدائن
وفارس :

« . . أما بعد فانى أعطيتكم عهد الله وميثاقه ، على
أنفسكم وأموالكم وعيالكم ورجالكم وأعطيتكم أمانى من
كل أذى ، وألزمت نفسى أن أكون من ورائكم ذابا عنكم
كل عدو يريدنى بسوء وإياكم . . وأن أعزل عنكم كل أذى
. . ولا يغير أسقف من أساقفتكم ، ولا رئيس من رؤسائكم
ولا يهدم بيت من بيوت صلواتكم ، ولا يدخل شىء من
بنائكم الى بناء المساجد ولا الى منازل المسلمين ، ولا
تكلفوا الخروج مع المسلمين الى عدوهم لملاقاة الحرب ،
ولا يجبر أحد من النصارى على الاسلام عملا بما أنزل
الله فى كتابه [لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى]
« ولى شرط عليهم : الا يكون أحد منهم عينا لأهل الحرب
على أحد من المسلمين فى سر ولا علانية ، ولا يؤوا فى
منازلهم عدوا للمسلمين ، ولا يدلوا أحدا من الأعداء
ولا يكاتبوه . . الخ »

فى أى دنيا غير دنيا الاسلام نجد هذا التسامح الفريد . . ؟!
وأين هذا مما صنعته اسبانيا المسيحية بالأمس مع مسلمى
الاندلس الذين ورثوا الاسبان حضارتهم ومدنيتهم . . ؟!

وأين هذا مما تصنعه قوى التبشير المسيحى العالمية اليوم من
كيد للاسلام وللمسلمين . . ؟!

ولنقرأ الامان الذى اعطاه امير المؤمنين لاهل ايليا ، وهذا نصه كما يرويه الطبرى :

« هذا ما اعطى عبد الله عمر بن الخطاب امير المؤمنين اهل ايليا من الامان . اعطاهم امانا لانفسهم واموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم . الا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها شيء ولا من صليبهم ولا من اموالهم ، ولا يكرهون فى دينهم ، ولا يضار منهم احد » .

الا ان اعظم هبات الاسلام لهو التسامح . وهو لا يضفى رواءه على قريبى العهد من الرسول وحسب بل وعلى كل من اعتنق الاسلام وفهمه ووعاه مهما تباعدت به العصور .

وهذا هو الدكتور حسن ابراهيم رحمه الله يحدثنا عن كرامزن ان « ازبك خان » وهو اول من ادخل الاسلام الى روسيا ، وكان شديد التحمس له ودائب الدعوة اليه ، علمه الاسلام كيف يكون التسامح وغرس فضيلته فى فؤاده فتسامح مع رعاياه من المسيحيين ومنحهم الحرية التامة فى اقامة شعائرهم ، وسمح لهم بالتبشير بدينهم ونشره فى بلاده وحرر بهذا وثيقة تقول :

« ان كنيسة بطرس مقدسة ، ولا يحل لاحد ان يتعرض لها ، او لاحد رجالها بسوء ، ولا ان يستولى على شيء من عقارها او متاعها ، ولا ان يتدخل فى امورها . ومن خالف امرنا هذا بالتعدى عليها فهو مجرم امام الله ، وجزاؤه منا القتل » (١) .

---

(١) التاريخ السياسى للاسلام جـ ١ .

الا حيا الله الاسلام ، وحيا اهله ونويه فى كل زمان ومكان .

ان هذه الوثيقة التى نطالعها الآن كتبت فى القرن الرابع عشر الميلادى وهى شبيهة بالعهد الذى قطعه على نفسه أمير المؤمنين فى السنوات الاولى من القرن الاول الهجرى ..!!

وعلى طول ما بين العهدين من قرون ، فكانهما عهد واحد ، لانهما يستقيان بماء واحد ، وينهلان من روح واحد هو روح الاسلام العظيم الذى قال دستوره الخالد :

« ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

« ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن » .

— ١١ —

والاسلام بعد ذلك دين حضارة لا يعرف التخلف ولا الجمود . واذ كانت الحضارة تبدأ بالمعرفة والعلم ، فقد علم الاسلام ابناءه ان يركضوا الى العلم ركضا ، ويتزاحموا حوله بالمناكب ، ويقبلوا عليه اقبال العاشق المشغوف .

والعلم الذى يحض الاسلام اتباعه عليه هو علم الثيا والآخرة . العلم الذى يزكى النفس ويسمو بالروح ويعرف المسلم حق الله عليه . ثم العلم الذى يجعل الدنيا مكانا طيبا للحياة عن طريق الحضارة فى شتى مجالاتها وصنوفها النظيفة .

يقول القرآن الكريم :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .. ؟

ثم يتوج العلماء بتاج الكرامة حين ينعتهم بأنهم من أكثر الناس معرفة بالله وخشية له :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » .

والله رب العالمين يدعو عباده الى السعي نحو العلم ويعدهم بأن يمدهم من فضله بما لا يستطيعون الوصول اليه من علوم الدنيا وعلم الآخرة الا بما يهبهم من عطائه . ويمدهم من علمه :

« ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

ويحضهم القرآن الكريم على افراغ الوسع فى محاولة كشف المجهول مخبرا اياهم ان لكل نبأ مستقرا ، ولكل مجهول نهاية يحوله العلم بها الى معلوم .

« لكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون » .

ويدعو اتباعه الى الاستزادة من العلم دون توقف او تردد :

« فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

ويمن الله على عباده بأنه :

« علم الانسان ما لم يعلم » .

واذا كان المعلم هو الله فمعنى ذلك انه لا نهاية لما سيصل اليه الانسان من علم ومعرفة ، وهذا هو السر العظيم الذى يقف وراء المعرفة الانسانية التى لا تعرف النقصان ابدا ولا التوقف . وانما هى من مزيد الى مزيد .

ذلك لأن الله هو المعلم [علم الانسان ما لم يعلم] والمعلم سبحانه

لا حدود لقدرته ولا منتهى لعلمه ، ولهـذا نجده سبحانه يقدم الينـا واحدا من عباده الصالحين فاق غيره في العلم بالله والعلم بالحياة فيقول:

« وانه لذو علم لما علمناه ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

وعظمة المسلم ماثلة في ان الله سبحانه ذخره بالعلم الذى يعرفه به وبالعلم الذى يكشف له سعادته في حياته ودنياه .

واذ يعلم الله ضعف النفس البشرية وانخداعها بمظاهر الحياة الباطلة وركونها اليها فقد دعا عباده المؤمنين ان يجعلوا لشغفهم بالمعرفة كوابح و « غوامل » حتى لا تسلك بهم مسالك الشر والتدمير ، والا ينقادوا في غمرة حماسهم وراء العلم الذى يزخرف الحياة ناسين العلم الذى يصلهم بالله ويعرفهم به .

اجل ـ ان القرآن ليدعو المسلمين الا يكونوا من الذين :

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

وهنا يبين الفارق الكبير بين الحضارة التي تشاد على قواعد من علم مغرور ملحد ، والحضارة التي تشاد على علم ورع خاشع لله رب العالمين .

ان الاولى تتحول الى وباء يفتك بالبشرية ويضع مصيرها على الهوة الفاغرة .. بينما الثانية ترتقى بالانسان روحا ومادة الى آفاق مأمونة .

ويقودنا الرسول عليه الصلاة والسلام فى طريق المعرفة والعلم قودا حكيما ودءوبا . ويعلمنا فيقول :

« من سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله به طريقا الى الجنـــة » .

والعلم النافع المضيء الذى يهـــدى القلوب الى الله ، ويهـــدى العقول الى الصواب ، ويحقق للحياة الانسانية السلام والامن والتقدم وعلنية الحياة هو العلم . . وهو ليس نافلة يتعلمه من يشاء بل هو كما يقول الرسول :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

ويجعل المعاناة فى تحصيله جهادا .

« من خرج فى طلب العلم ، فهو فى سبيل الله حتى يرجع »

بل اكثر من ذلك يقول عليه السلام :

« من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقى الله ولم يكن بينه وبين النبيين الا درجة النبوة » .

« اذا جاء الموت طالب العلم وهو يتعلم مات شـــهيدا »

« لا حسد الا فى اثنتين :

- رجل اتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق
- ورجل اتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها » .

« ان العلماء ورثة الانبياء . ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكن ورثوا العلم ، فمن اخذه اخذ بحظ وافر »

«ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلما رضا بما يصنع»
ونعود الى سـؤال المحنا اليه من قبـل ، هـو أى علم يريده الرسـول ؟

انه ـ اولا ـ العلم الذى يفسر للناس أمـور دينهم ، ويدفـع حياتهم فى طريق الفضيلة والخير ، ويوثق اتصالهم بالله .

« تعلموا الفرائض والقرآن ، وعلموا النـاس ، فانى مقبوض » .

ويقـول :
« نضر الله امرأ سمع مقالتى فحفظها ووعاها ، وبلغها من لم يسمعها » .

فالعلم الذى يقدم للناس دين الله وسنة رسوله يأتى فى الصدارة من كل العلوم .

وبعدئذ يجىء العلم بكل انواعه . العلم الذى يشيد الحضارات، وينفع الناس وينمى عطاء الحياة .

فالعلم الذى يقود خطى الحضارة فى رشد، ويسهم فى دفع التقدم الانسانى وينتفع به فى توفير الراحة والخير للناس ـ المسـلمون مدعوون اليـه .

وفى هذا المجال يقول الرسول عليه السلام :
« اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث :
ـ صدقة جارية . .

— او علم ينتفع به ..
— او ولد صالح يدعو له . . »

فقوله عليه السلام [علم ينتفع به] ينتظم علوم الحياة التى تنفع الناس وتيسر لهم وسائل العيش ، وتزيد ثراءهم العقلى والروحى .

وهو أيضا المعنى بقول الرسول :

« الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها »

لقد وعى رسول الله قول الله له :

« وفوق كل ذى علم عليم » .

وقوله سبحانه :

« وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

فما هذا العلم الذى لا منتهى لابعاده ولا حصر لعلمائه ؟؟

انه علم الدنيا والآخرة . . علم النسك وعلم الحياة . . علم الكون بكل ما نستطيع أن نصل اليه من كشوف واسرار . . العلم الذى تتم به عمارة الارض ، وازهار الحياة ورفعة الانسان .

« اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

فلا حدود من تخوم الارض ، ولا من تخوم العقيدة ترد المسلم عن أخذ العلم النافع والحكمة الصادقة والمعرفة المتساوقة .

فالجهل هو الخطيئة الكبرى التى يعيذ الرسول منها امته .

وكما يقول الاحنف :

« كل عز لا يوجد بعلم ، فمآلى ذل مصيره » .

ولقد وعى علماء الاسلام روح التوجيه النبوى الكريم فتدوقوا فى كل صنوف العلم وتألقوا ، ثم علموا الدنيا ، وشادوا الحضارات .

وهكذا بلغ العلم ارفع المنازل فى الأمة المسلمة والدولة المسلمة .

وهكذا كان فى كل عصور التاريخ الاسلامى يقود خطى الموكب العظيم الذى ظل يحمل راية التوحيد والايمان والفضيلة والخير والحضارة والتقدم قرونا تلو قرون .

وما نحسب العلم بلغ الغاية فى رشده وهديه ونفعه للناس ، واحيائه للروح وللعقل وللضمير دون انحراف أو زيغ أو تخريب مثلما بلغ من ذلك كله فى ظل الامة المسلمة .. خير أمة أخرجت للناس !!

* * *

فالدولة المسلمة، وهذا مكانها من العلم، وهذه منزلة العلم فيها، أولى الدول بتبنى قضية الحضارة الانسانية والغيرة عليها والاسهام فى بنائها وأخذ الحظ الوافر منها .

وعبر التاريخ نلتقى بالحضارة الاسلامية وهى توقظ العالم من سباته وتعلم أوروبا وغير أوروبا أن تستجيب لدعوة التمدن والتقدم وأن تأخذ مكانها — ولو فى آخر الصفوف — بين موكبها الهادر الذى كانت تقوده حضارة الاسلام وترعاه .

ان الجانب النظيف من حضارة أوروبا والغرب انما ولد فى حجر الحضارة الاسلامية وتغذى بلبانها .

ومن دمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، وغرناطة ، وقرطبة وغيرها

كانت انوار الحضـــارة تشـــع منادية اليها القاصـــدين والرواد من أوروبا وغيرها .

وكانت حضارة تقوم على المادة والروح دون ان تسلم احداهما للاخرى ، ومهما يكن من امر الانفلات الاخلاقى الذى اصـــاب الدولة المسلمة فى بعض مراحلها فان الجانب الروحى بقى له نفوذه ودعاته والداعون اليه سرا وجهارا .. وليلا ونهارا ..

لقد اكتشف العقل الاســـلامى فى ظل دولته وبمعونتهـــا اروع الـــكشوف فى جميع فروع المعرفة البشرية وفى نفس الوقت كان ثبات ايمانه وشموخه امرا ملحوظا ومثيرا .

كنا اساتذة العالم فى التجارة ، وفى العلوم بشتى انواعها ، وفى الكشـــوف والمخترعات ، فى الطب .. فى الادب .. فى الفن .. فى العمارة .. فى الفلك .. فى الكيمياء .. فى الصناعة .. فى الزراعة .

ويوم كان تجار المسلمين يطوفون العالم برا وبحرا بتجارتهم ، كانت أوروبا تقذف بقراصـــنتها يعيثون فى ســـواحلها فســـادا ونهبا وتخريبـــا .

ان اعظم المخترعات التى تبهرنا اليوم يرجع الى آبائنا المسلمين العلماء فضل كشفها .

تقول « زجريد هونكه » (١)

« اننـــا نقف الآن مشـــدوهين متعجبين أمام تطـــور فن الصواريخ العظيم دون ان نســـائل انفسنا الى من ندين بهذا الاختراع » .

---

(١) كتاب « شمس العرب تشرق على الغرب » .

ثم تثبت انهم آباؤنا العرب المسلمون هم الذين يدين لهم الغرب والشرق بهذا الاختراع اذ كانوا أول من وضع نظرية تركيب البارود المتدفع فى القرن الثانى عشر .

وعلوم الرياضيات والفلك والبصريات والحساب والجبر والارقام وعلم طبقات الجو ـــ الارصاد الجوية ـــ وعلم الميكانيكا .. واختراع الاجهزة الدقيقة المذهلة التى لا يكاد العقل يصدق انها اخترعت فى ذلك العصر البعيد .

وفى ظل الدولة المسلمة قام الخوارزمى وابن الهيثم والبيرونى

وحسب ابن الهيثم ان نظرياته فى علمى الفيزيساء والبصريات لا تزال حتى يومنا هذا تحكم العقل الاوروبى الذى يسير فى ضوئها .

وحسب البيرونى انه سبق « كوبرنيكس » وغيره .. سبقهم بخمسمائة عام الى اكتشاف أن الارض تدور حول نفسها ، ثم تدور مع الكواكب والنجوم حول الشمس ، وأن الشمس ليست السبب فى تفاوت الليل والنهار بل هى دورة الارض ذاتها .

وكان عندنا ابن سينا والفارابى وعمر الخيام .. ومن عجب اننا لا نعرف من عمر الخيام الا جانبسه اللاهى ، بينما الغرب واوروبا يعرفان انه الرجل الذى طور علم الجبر واوصسله الى قمة عالية من الازدهار .

« بل ان من الانصاف والحق ان نقول : ان عمر الخيام قد وفق فى الارتقاء بعلم الجبر الى ذروة سامقة لم يعرف لها فيما بعد مثيسل الا على يد الفليسوف الفرنسى « ديكارت » (١) .

---

(١) المرجع السابق .

ومنا « ابن رشـــد » الذى يقـــول عنه ج. بيورى فى كتـــابه « حرية الفكر » .

«ان اول موجة من النور اضاءت اوروبا كانت مؤلفات ابن رشـد»

وبينما كان الطب فى اوروبا واقعا تحت ايدى الدجالين من رجال الكهنوت حيث يعالجون بالشعوذة جميع انواع الامراض حتى الجراحة كانت الدولة المسلمة تزخر بالاطباء المتقـدمين والبارعين فى شـــتى التخصصات .

تقول « زجريد هونكة » :

« اين هو البلد الذى عرف الطب بشموليته وعمقه وازدهاره كما كان الطب العربى ؟ واين هى الدولة التى عرفت مثل هذا الجمع الكبير من الاخصائيين فى شـــتى حقول المســحة ، وتركيب الادوية والعقاقير كما كانت الحال عند هذا الشعب ؟ وهل كان للمستشفيات الحديثة فى الاصقاع العـــربية آنذاك مثيل فى اى طرف من اطـــراف الارض . ؟ . . ان وسائل العلاج عندهم تتحـــدث ببلاغة عن عظمة ابحاثهم . كما ان علم الصحة عندهم اروع مثل يضرب . . ولم العجب والدهشة ، والوضع كان كما نعلم . . الم يطلب الفرنجة مســـاعدة العرب الطبية ويلحوا فى التماسها » (١) .

اننا حين نقرا لكتاب اوروبا والغرب عن حضـــارتنا فى الطب نجدهم يتحدثون عن مستشفيات كاعظم وانظف ما وصلت اليه اوروبا اليوم ، كما يتحدثون عن اطباء لم ير العالم لهم مثيلا .

---

(١) المرجع السالف .

وانهم ليتحدثون عن الطبيب المسلم ابى بكر محمد بن زكريا الرازى فيصفونه بانه « احد اعظم اطباء الانسانية اطلاقا » .. !!

ويهيمون هياما شديدا بالعالم المسلم « ابن النفيس » من علماء القرن الثالث عشر الميلادى — وهو اول عالم على ظهر الارض نفذ ببصره الى اخطاء « جالينوس » ونقدها . ثم اكتشف نظرية الدورة الدموية .

وعندنا ابن مسكويه وابن الخطيب والطبيب الطبرى الذين ابدعوا فى مجال الصحة والطب .

وكم من مكتشفات هائلة اكتشفها علماء الاسلام والعرب ، انتحلها وادعاها اوروبيون وظاهرهم على ادعاءاتهم كتاب وعلماء اوروبيون .. !!

ولسنا نحن الذين نقرر هذه الحقيقة المؤسفة بل تقررها المستشرقة الالمانية « زجريد هونكة » فتقول : (١)

« هذه المعارف المبتكرة العظيمة الشأن .. هذه التحقيقات العلمية الرائعة التى قدمتها العبقرية العربية الاسلامية هدية منها للانسانية عامة ، ولاوروبا خاصة ، هل رددناها الى مصدرها ، وارجعنا فضلها الى صانعيها .. ؟!

« لقد كان الامر على العكس تماما ، فان اغلب الاكتشافات العربية [الاسلامية] حملت معها ، ولاتزال

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب .

تحمل حتى يومنا هذا اسماء انجليزية ، أو فرنسية ، او المانيـــة » .

لقد ظلت مؤلفات آبائنا المسلمين تدرس فى اوروبا مئات السنين ولم يكن فى اوروبا كلها عالم واحد لم ينهل — فى مجال تخصصه — من كتب آبائنا السالفين .

لقـــد كان آباؤنا المسلمون ســـادة حضـــارة من اعظم واروع حضارات العالم وليس ثمة ما يمنع ، بل هناك ما يدفع لكى نستأنف مسيرتنا الحضارية فى عالم ينقصه مما نملك ، الشىء الكثير .

فالدولة المسلمة دولة حضارة وتقدم ، وهى مسئولة عن تقـــدم الحياة مثل مسئوليتها عن دين الله .

يقول مؤلف « الاسلام قوة الغد العالمية » :

« ان قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن، ولم تنجح الاحداث التى مرت بالمسلمين فى القرون الاخيرة فى زعزعة ثقتهم به كقوة روحية .

« ان الروح الاسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة ومشاعرهم . وستظل هناك مادام ثمة شعوب اسلامية ربطت مصـــيرها بمصير الاســـلام ، واعتقدت أن الرباط الجامع بين اجناسها هو الاسلام .

« ان روح التعاطف والتوادد بين المســـلمين هو السبب الرئيسى فى تجميع القوى الوطنية على طريق « القومية الاسلامية » . . وانه من الممكن للمسلمين ان يتقدموا فى العلم والتكنولوجيا كما تقدم الاوروبيون وهم يومئذ لن

يكونوا بحاجة الى رباط يجمع شملهم سوى الاسلام وهو قائم فعلا ولم يفقدوه بعد » .

ان عظمة الاسلام الفريدة ماثلة فى أنه يسير بالتقدم المادى والتقدم الروحى فى طريق واحدة . وهذا يجعل مستقبله مستقبلا للبشرية كلها .. ذلك ان الحضارة الغربية المعاصرة تعانى هذه الآفة القاتلة . وهى ان التقدم المادى يمضى هادرا وسريعا بينما تقدمها الروحى متخلف جدا وبطىء كذلك .

ويوم يكتشف الوعى الانسانى حاجته الى المواءمة بين تقدمه المادى والروحى سيجد الاسلام فى انتظاره يمنحه حضارة المادة وحضارة الروح ، ويهديه سواء السبيل .

وهذه حقيقة يجب على المسلمين أن يستعدوا لتقبلها وحمل تبعاتها .

والدولة المسلمة فى عصرنا هذا مطالبة بأن تصادق اكثر واكثر حركة العلم .

ونحن نعنى بحركة العلم ذلك التطور الخلاق الذى يقطع الحياة وثبا مخلفا وراءه العمى الذين لا يبصرون ، والصم الذين لا يسمعون، والمقعدين الذين لا يواكبون ركبه ولا يتابعون خطاه .

ولا يعنى مسايرة حركة العلم والحضارة ان نفقد شخصيتنا الاسلامية وتقاليدنا ، ونذهب نقلد الغرب فى شكليات الحياة المنحلة ومظاهرها الماجنة والرخيصة . بل يعنى أن نحيا فى مستوى تعاليمنا

ودينا وتقاليدنا حيـــاة متحركة ومتجـــددة وملتقية مع روح العصر وانجازاته الجادة .

على الدولة المسلمة اليوم ـــ كل دولة ـــ أن تتسلح بأسلحة العصر لا عسكريا فحسب ، بل فى كل مجالات الحياة . .

عليها أن تقوم بتصنيع مواردها وبلادها ، وان تاخذ بحظ وافر من احدث ما وصـــل اليه العلم والتكنولوجيا اولا بأول ، وان تتيـــح لشبابها فرصة التزود الكامل بالمعرفة والعلوم . ونحن فى هـــذا لن نكون مقلدين لغيرنا ، بل سنكون قد استانفنا حضـــارتنا التى غذت العالم من قبل وعلمته لغة الحياة .

علينا نحن المسلمين ان نفيد من كل فرص التقدم النظيف دون ان نسلم رقابنا للاغلال ، ودينا للضياع ، وروحانيتنا للجفاف .

علينا ان نذكر ان دورنا مع حركة التاريخ وصنع الحضارة لايزال قائما . وان الاســـلام الذى نحمـــل لواءه لم ينته ولن ينتهى دوره فى ترشيد الحياة وهداية البشر ، كما لن تنتهى حاجة البشرية اليه .

وعلينا ان نعمق ايماننا بأن الاسـلام :

دين ، ودولـــة . .

حق ، وقـــــوة . .

ثقافة ، وحضارة . .

عبادة ، وسياسة . .

ملحق

بعد الفراغ من هذا البحث يطيب لي ان اضرب مثـــلا ، واقدم نموذجا للدولة المسلمة وللحاكم المسلم .

ولن اختار هذا النموذج من بين الخلفاء الراشدين . فقد يقال : تلك امة قد خلت .. وذاك طراز شـــهد الوحي ورباه الرســـول . ساختار النمـــوذج من العصر الاموى . ذلك العصر الذى شـــــهد انحرافات بالغة ، والذى تنبأ له الرسول بانه سيكون نهـــاية عصر الخلافة الراشدة وبداية عصر الملك العضوض .

ساختار « عمر بن عبد العزيز » .. !!!

الرجل الذى حاول نقل عصر الوحى بمثله وفضـــائله الى دنيا هائجة مائجة ، مفتونة مضطربة ، متلفعة بالظلم والقهر ، متعفنـــة بالتحلل والترف . ثم نجح فى محاولته نجاحا منقطع النظير .. !!

لقد جعل من الملك العضوض الذى شاده الامويون عبر ستين عاما ـــ قبل مجيئه ـــ خلافة اوابة ، بارة ، عادلة ، تمثل كل فضـــائل وسمات عصر النبوة والوحى .

ومتى .. ؟

ليس فى عشرين عاما ، ولا فى عشرة اعوام .. بل فى عامين ، وخمســة اشهر ، وبضعة ايام .. !!!

وهذا النموذج يرينا « روح » الدولة المسلمة و « ضـــميرها » كما يرينا شكلها الذى كان مثاليا بالنسبة لعصرها .

بيد انه لا يرينا الشكل « النهائى » للدولة المسلمة . . ففى عصرنا هذا لابد للشكل ان يختلف بقيام المؤسسات الدستورية ، والمجالس النيابية التى تضبط دور الحاكم ، كمنفذ لاحكام الله ، ووكيل عن الامة ولابد من صحافة حرة ، ومعارضة حقيقية وفعالة ، يخشاها الحاكم ولا تخشاه ؛ ويلتمس عندها الصواب والصدق وسواء السبيل .

ان النموذج الذى يقدمه لنا « عمر بن عبد العزيز » يرينا فى اية آفاق رفيعة شامخة تحلق الدولة ويحلق الحاكم حين يكون الاسلام الحق هو المنهج ، وهو القدوة ، والامام . . !!

ولن اقدم هذا النموذج فى كتابة جديدة . بل سأستعير فصلا من كتابى « معجزة الاسلام : عمر بن عبد العزيز » ذلك الفصل الذى كان الكتاب قد تضمنه تحت عنوان « المنهج » . .

راجيا ان يكون تتمة مباركة لحديثى هذا عن — الدولة فى الاسلام — . .

* * *

المنهـــــج

كتب اليه واليه على خراسان يستأذنه فى ان يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع اهلها ، متأثلا فى رســـالته للخليفة « انهم لا يصلحهم الا السيف والسوط » . .

فكان رده التقى الحازم :

« كذبت . .

بل يصلحهم العدل والحق ، فابسط ذلك فيهم ، واعلم ان الله لا يصلح عمل المفسدين » . !!!

* * *

العدل ، والحق . . !!

بهما وعليهما سيقوم منهج امير المؤمنين ، وعلى طريقهما اللاحب المستقيم ، ستمضى خطاه . . آخـــذا معه على ذات الطريق جميـــع الناس : امراءهم ، وعامتهم . . اغنياءهم ، وفقراءهم . اقوياءهم ، وضعفاءهم . !!

والخليفة ، الذى نراه دائم البكاء ، بل النحيب . كلما ذكر الله واليوم الآخر . . والذى ينتفض تحت وقع تقاه انتفاضة العصفور ، حتى لنحسبه لا يصلح لغير الصومعة يتحنث فيها ويتعبد . . !!

هذا الخليفة ، سيبهرنا الآن ونحن نطالع منهجه واســـلوبه فى الحكم حيث تطل علينا من وراء دموعه المنثالة روح عالية تناضـــل فى جهاد مستبسل لبلوغ اسمى آفاق العدالة والحق . . وحيث تطل علينا كذلك بصيرة نافذة لا يفلت من ضيائها شىء ، وارادة حازمة لا يهولها صعب ، ولا يجفلها خطر . .

وفجأة سنرى العينين السابحتين فى دموعهما دوما ، تحدقان كعينى الصقر .. وترسلان بريقا أخاذا ، يقنع كل من يتلقاه انه امام عينين ثاقبتين ليس الى خداعهما سبيل . . . !!

* * *

ان المصاعب المتطاولة ، والاخطار المحدقة ، والمؤامرات المتساوقة لن تزيد الارادة الرافعة لواء العدل والحق الا تقدما ومضاء .

فلتفن العواقب لنفسها .. أما هو فلن يبالى بما كان ولا بما سيكون منها .. بل سيضع يمينه فى يمين الحق ، ويمضى معه الى حيث يدمدمان معا على مظالم وظلمات الاعوام الستين التى سبقته فى الحكم الأموى .. والى حيث يجعلان ظلماتها نورا .. وهجيرها فردوسا .. وترفها قناعة .. وانحلالها ورعا .. واستعلاءها تواضعا .. وقهرها رحمة .. ورعبها امنا .. !!

وبين يدى عزمه الربانى القدير ، راحت كلماته تقرع اسماع الغطرسة ، والتحدى :

« والله ، لو لم ينهض الحق ويدحض الباطل الا بتقطيع اوصالى واعضائى ، لامضيت ذلك وانا سعيد » . !!!

«ووالله ، لو لبثت فيكم خمسين عاما ، ما اقمت الا ما اريد من العدل » . . . !!

فلنتابع منهجه لنرى . .

ولكن علينا الا ندع التفاصيل الكثيرة تشغلنا ببهرها عن الاسس والقواعد .

وعلينا ان نقتصد فى ذكر الوقائع والمشاهد التى تحكى خصائص المنهج وسماته ، حتى يضيء علينا هذا التركيز فى الرؤية تركيزا مماثلا فى نشوة العقل وغبطة الروح ..

اى اننا سنكتفى من المنهج بنقاط ارتكازه ومحاوره التى تدور حولها بقية التطبيقات والتفاصيل .

وتتلخص هذه المحاور فى : ـــ

* نظرته الى دور الدولة ووظيفتها ..
* نظرته الى دور الشورى ووظيفتها ..
* نظرته الى دور المال ووظيفته ..
* موقفه من وحدة الامة وسلامتها ..
* اسلوبه فى العمل ..

* * *

ـــ اولا : الدولة قدوة ..

ان الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بسلطان الدولة لا يأتون امرا مذكورا .. فتلك سنة مألوفة معتادة . ان تحمى القوة القانون .

اما الحكام الذين يحمون القانون وينفذونه بالقدوة ، فاولئك الذين يجاوزون المألوف المعتاد الى الخوارق والمعجزات .

ولقد كان « ابن عبد العزيز » واحدا من هؤلاء .

لقد كانت الدولة قبل عهده تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها، اذ تركت مواقع عملها واستسلمت للغواية والهوى .

والدولة عنده تتمثل فى كل الاجهزة العاملة ، لكن يأتى فى المقدمة دائما :

ا ـــ الخليفة بوصفه رئيس الدولة .
ب ـــ الولاة بوصفهم حكام الاقاليم .
ج ـــ القضـــاه .
د ـــ امناء بيوت المال .

والخليفة ـــ اى خليفة ـــ وان وضعته وظيفته ومسؤولياته على راس الدولة ، فانه يظـــل عاجزا عن اداء دوره ما لم يقف معه فى مستواه او قريبا من مستواه ولاته وقضاته وامنـــاؤه على الاموال العـــامة .

ها هو ذا « عمر » يقول :

« ان للسلطان اركانا لا يثبت الا بها . .

* « فالوالى ، ركن . .
* « والقاضى ، ركن . .
* « وصاحب بيت المال ، ركن . .
* « والركن الرابع ، انا » . . !!

واذن ، فلكى تكون الدولة قدوة فى حمل دين الله وحقوق الناس، لابد ان تتشـــكل هذه القدوة من ســـلوك هؤلاء الاربعة مجتمعين .

الخليفة ، وولاته ، وقضاته ، وخزنته .

ولكى تكون الدولة قدوة ، لابد ان تكون بمسؤوليها جميعا ، وعلى راسهم امير المؤمنين ، طليعة العمل ورائدته . .

وهكذا راح « عمر » يضع الدولة كلها وهو على راسها فى مكان القدوة ، حاملة وحاملا معها كل ما تلقيه القـــدوة من مسؤوليات ، وباذلا كل ما تتطلبه من تضحيات .

وقبل ان يامر ولاته ، وقضاته ، وخزنته ، بدا بنفســه .

لقد تلونا من قبل ، كلمته العظيمة :

« لست الا كأحدكم . .

غير انى أثقلكم حملا » .

وهنا ، نرى طريقته فى وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الحاسم، الحازم ، الفريد .

لقد كان دخله السنوى حتى اليوم الذى ولى فيه الخلافة اربعين الف دينار . . هى حصيلته من مخصصاته كأمير أموى . . ومن الارض التى كان يملكها . . ومن نصيبه الوفير من ميراث ابيـــه عبد العزيز بن مروان .

والآن ، تتفتح بصيرته ، على الحقيقة العميقة ، غيرى ان هذا الثراء الفاحش الذى يمتلكه أمراء بنى مروان — وهـــو معهم — لم يبلغوه بعرق الجبين . . وما هذه الثروة المتمركزة فى ايدى حفنات من الامراء والسادة ، الا حقوق الملايين واقواتها سلبت منهـــا بغير حق ، وبغير سلطان . . !!

ومن فوره ، اتخذ قراره الحاسم بالغاء كافة مخصصات الامراء، ومخصصات حرسهم وخدمهم ، وقراره بنزع الاقطاعيات الزراعية منهم جميعا ، وردها الى بيت المال . .

وبدأ بنفســه ، فتخلى عن جميع املاكه وامواله !! حتى ارض « فدك » فى « خيبر » وكانت خير ممتلكاته واثمنها ، ولم يكن احـــد اقطعه اياها ، بل ورثها من ابيه .

لكنه سأل نفسه ومن اين جاء بها ابوه . . ؟ !

لقد افاءها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم خيبر ، فخصصها لابناء السبيل . وظلت كذلك حتى ملك الامر معاوية فوهبها لمروان .. ومن مروان . وصلت الى ابنه « عبد العزيز » والد « عمر » .

نقول : حتى هذه الارض ، تخلى عنها وكتب لواليه على المدينة يأمره أن يضمها لملكية الدولة ، وأن يصرف ريعها ونتاجها حيث كان يصرف على عهد الرسول وخلفائه ..

ليس ذلك فحسب .. بل لقد تنازل عن كل درهم في راتبه المخصص له كأمير للمؤمنين .. !!

لقد اكتفى من دنياه كلها ، ولدنياه كلها ، بقطعة ارض صغيرة كان قد اشتراها بحر ماله ، ولم تكن تغل اكثر من مائتي دينار في العام ، راح يعيش بها هو واسرته الكبيرة .

مائتا دينار في العام ، لرجل كان دخله — منذ أيام لا غير — اربعين الف دينار .. !!

مائتا دينار ، لحاكم اعظم ، واكبر ، واغنى امبراطوريات عصره وعالمه ، يعيش بها طول العام وعرضه ، وتعيش معه أسرته التي كانت هي الاخرى — منذ ايام — لا غير ، تخب في النعيم خبا .. وتعب من المباهج عبا .. !!

ولكن ، اى باس ؟!

أليس قد رفع الحق شريعة والعدل منهاجا ؟

فليكن حسبه ألا تسقط الراية من يمينه .. وليكن حسبه أن يحلق بها في مستوى تنقطع دون بلوغه الانفاس .. !!

كل ارضه تركها للدولة . .

كل ثروته النقديه ، دفعها الى خزانة الدولة .

بل لقد جمع ثيابه وحلله الرائعة ، وحلل زوجته واولاده . .

ثم جمع مراكبه وعطوره ومتاعه ؛ ثم دفع ثمنها الذى بلغ ثلاثة وعشرين الف دينار الى بيت المال . . !!

ثم حرم نفسه حتى حقها المشروع فى راتب الخلافة الذى كان يستطيع ان يتنازل عن نصفه او عن ثلثه ، لكنه رفضه جميعا الى آخر درهم منه . . وراح يعيش بعائد ارضه الصغيرة ـــ مائتى دينار فى العام ـــ بواقع ثلاثة ارباع دينار فى اليوم ، لامير المؤمنين ، وزوجة امير المؤمنين ، واولاد امير المؤمنين . . . !!

انها كان يكفيه ان ينفرد هو باعباء القدوة ، تاركا اهله واولاده يحيون ولو فى مستوى حياة اوساط الناس . . ؟؟

انه يعتبر هذا ـــ لو حدث ـــ احتيالا على المسؤولية ، وهروبا من تبعات القدوة ، ويرى النار تمد اليه السنتها اللاهبة ، لتطوقه حسابا له وعقابا . . !!

ومن ظن اننا نبالغ فى التصوير ، ونسرف فى صبغ الالوان ، فليطالع هذه الواقعة :

لقد عاد يوما الى داره بعد صلاة العشاء ولمح بناته الصغار . فسلم عليهن كعادته ، وبدلا من ان يسارعن نحوه بالتحية كعادتهن . رحن يغطين افواههن بأكفهن ويتبادرن الباب .

فسأل : ما شأنهن . . ؟؟

فاجيب : بانه لم يكن لديهن ما يتعشين به سوى عدس وبصل . فكرهن ان يشم من افواههن ريح البصل فتحاشينه لهذا ..

فبكى امير المؤمنين ، وقال يخاطبهن :

« يا بنـــاتى ...

ما ينفعـــكن ان تعشـــين الالوان والاطـــايب ، ثم يذهب بابيكن الى النـــار .. ؟؟ .. »

وترى احدى بناته الصغار صديقة لها تزين اذنيهـــا بلؤلؤتين جميلتين ، فترسل احداهما الى ابيها ضارعة ان يشترى لها مثلها .

ويدعو امير المؤمنين خادمه ، ويأمره ان يجيء بجمرتين ملتهبتين ... ثم يطلب ابنته فيقول لها :

« ان استطعت ان تجعلى هاتين الجمـــرتين فى اذنيك ، جئتك بلؤلؤتين كهذه » .. !!

ان مسؤولية القدوة ـــ اذن ـــ لا تنحصر فيه ، هو الخليفـــة والحاكم .. بل ـــ وحسب منهجه وتقديره ـــ تنال اهله جميعـــا ، حتى بناته الصغار .. !

وهكذا راح يحملهم على التضحية فى سبيل المسؤولية والقدوة.

اقترب يوما من زوجته فاطمة ، وقال لها :

« انك لتعلمين من اين اتـــاك ابوك ـــ عبـــد الملك بن مروان ـــ بهذه الجواهر ، فهل لك ان اجعلها فى تابوت ، اضعه ن اقصى بيت المال ، وانفق ما دونه ، فان خلصت اليه انفقته فى حاجات المسلمين » .. ؟؟

ولم يكن قد بقى لفاطمة سوى هذا الحلى وهذه الجواهر ، وهى عزيزة عليها ، لانها هدية ابيها لها فى عرسها وزفافها . .

ولكنها لا تجادل زوجها « القديس » حتى فى هـذه . . وتجرد منها نحرها ومعصميها ، فى غبطة ورضا . . !!

* * *

ويغادر — امير المؤمنين — قصور الخـلافة ، ويأوى الى دار متواضعة . .

ثم لا تشهد هذه الدار ايقاد النار الا لماما . .

ويأخذ على نفسه العهد الا يستحدث لنفسه شيئا من اشياء الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه . .

يحدث ابن عياش ، فيقول :

« كان لعمر مرقاتان يرقى عليهما من صـحن داره الى حجرته . .

« فتهدمت احدى المرقاتين ، فأعاد بناءها رجل من اهله .

« فلما جاء « عمر » ووجدها . سأل : من صنع هذا . . ؟ قالوا : فلان . قال : الى به . .

« فلما جاء قال له عمر . ويحك انفست على « عمر » ان يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة . . ؟!

« والله ، لولا ان يكون هدمى لها افسـادا بعد اصلاح لهدمتها ورددتها الى ما كانت عليه . . » !!!

* * *

ويدخل عليه فى داره احد خاصته المقربين ، فيجده بركن منها تغطيه الشمس ، وقد دثر جسمه كله فى ازار .. وحسبه الزائر مريضا ، فسأله ما باله .. ؟

فاجاب امير المؤمنين :

« لا شيء ، غير انى انتظر ثيابى حتى تجف ..

قال زائره : وما ثيابك يا امير المؤمنين .. ؟

قال عمر : قميص ، ورداء ، وازار .

قال صاحبه : الا تتخذ قميصا آخر ، ورداء ، وازارا .. ؟

قال الخليفة : كان لى ، ثم بليت .. !!

قال الزائر : الا تتخذ سواها .. ؟؟

وهنا شرقت كلماته بدموعه ، وراح يجهش بالبكاء مسندا جبهته على راحتيه ، مرددا آية القرآن الكريم :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » .. !!!

ولما كان يريد للدولة فى عهده ان تكون رحمة وحنانا ، فقد راح يمزق عنها كل اقنعة الصلف والكبر والتمايز .

وايضا ، بدا بنفسه ، فمنع الحراس ان يسيروا بين يديه . بل منعهم كما منع الناس جميعا ان يقوموا له حين يطلع عليهم ، وقال لهم:

« انما يقوم الناس لرب العالمين » !!

وناداه يوما رجل من المسلمين قائلا : « يا خليفة الله فى الارض » . . فاخذته الرعدة الصالحة ، وصاح فى الرجل :

« مه . .

« انى لما ولدت اسمانى اهلى « عمر » ، فلو ناديتنى « يا عمر » اجبتك . .

« ولما كبرت اخترت لنفسى كنية ، فكنيت « ابا حفص » ، فلو ناديتنى « يا ابا حفص » اجبتك . .

« ولما وليتمونى اموركم سميتموتى « امير المؤمنين » ، فلو ناديتنى « يا امير المؤمنين » اجبتك . .

« اما خليفة الله فى الارض ، فلست كذلك . .

« انما خلفاء الله فى الارض رسله وانبياؤه » . . !!

ومنع الدعاء له فوق المنابر فى خطبة الجمعة . وارسل بذلك كتابا حازما الى ولاته فى جميع الاقاليم ، قائلا فيه :

« مروهم فليصلوا على النبى عليه السلام . وليكن فيه اطناب دعائهم وصلاتهم . .

« ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات . .

« وليستغفروا الله . .

« وليكن دعاؤهم لعامة المسلمين . .

« وليدعوا ما سوى ذلك » !!

* * *

واذا كان قد حمل واهل بيته معه مسؤولية القدوة على هذا

النحو المجيد والفريد .. اذا كانوا قد حملوها طائعين راغبين ، فان هذا لا يكفيه ، بل لابد ان يحملها ايضـــا امراء بنى مروان جميعا . طائعين ان شاءوا .. وان ابوا فكارهين .. !!

لن يدعهم يتبذخون باسمه ، ويتخذون من قرابته ملجأ ومغنما .

اذا كان ولابد ، فلتكن هـــذه القرابة ملجـــأ لهم من اطمـــاعهم وشهواتهم .. ومغنما بالتزامهم منهج امير المؤمنين .

اما دون ذلك ، فلن تكون دنياهم فى عهده كدنياهم قبل عهده .

لن يظلوا طبقة فوق الامة .. ولن يدلف الى قصورهم وجيوبهم ثلث الدخل العام للدولة ، كما كان امرهم من قبل ان تهل على الدنيا ايام الاغر ابن عبد العزيز .. !!

ولقد راحوا بكل ضراعاتهم يحاولون الابقاء على بعض امتيازاتهم فلما فشلوا راحوا يناورون ، ولما اخفقوا راحوا يهددون .

ولكن رجل القداسة وقف لهم كالقدر ، واحكم وضع الشكائم على غرورهم واهوائهم ، ثم دفع بهم جميعا امامه على طريق العدل والحق ، مصغيا ترغهم المنهوم .. !!!

حدث يوما ان ارســـل الى كل امير واميرة بقـــدر من المال ، يدبرون به امرهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشنة ، فتنادوا واجتمعوا ، وقرروا ان يوفدوا اليه ســـديقا له يرجوه باســـمهم ان يرفع لهم العطاء .

فكان جوابه لهذا الصديق :

« والله لقد ندمت على هذا الذى اعطيته لهم ، وانى لاعلم ان فى المسلمين من هو احق به ، واحوج اليه منهم » .

وعاد مبعوثهم اليهم يقرع اسماعهم بكلماته المنذرة ، ويقول لهم:

« يا بنى اميـــة ...

« لا تلوموا الا انفسكم ، فقد عمدتم الى صاحبكم ـــ عبد العزيز بن مروان ـــ فزوجتموه حفيدة « عمر بن الخطاب» فجاءتكم بعمر بن الخطاب ، ملفوفا فى ثياب عمر بن عبد العزيز ، فلا تلوموا الا انفسكم » !!

* * *

ويعود الخليفة ليضع كلتا عينيه على الولاة والقضاة ، والامناء على الاموال العـــامة ـــ اولئك الذين ســـمعناه من قبل ينعتهم بأنهم والخليفة معهم يشكلون اركان الدولة والسلطان .

لقد كان يرى ان الولاة ، بحكم كونهم نوابه فى حكم الاقاليم ..

والقضـاة ، بوصفهم اهل الفصل فى مصاير الناس بما يملكون من كلمة الشريعة والقانون ..

وامناء بيوت المال ، بما لهم من ســـيطره مبـــاشرة على الاموال العامة وارزاق الناس .

نقول : كان يرى فى هذه المناصب اخطر مناصب الدولة واكثرها ثقلا وحساسية .. كما كان يرى فى اســـتقامة امرها العـــامل الاول والاهم لتمكين الخليفة من حمل مسؤولياته فى قسطاس وسداد .

وهكذا راح القديس يستكمل سمات القـــدوة للدولة ، باختيار ولاته ، وقضاته ، وامنائه فى حرص من يختار عافيته ومصيره !!

ولقد كان من المفروغ منه ، انه لن يجد من هـؤلاء من هو فى مستوى ورعه ، وشموخ نسكه وفضائله ، فراح يجتهـد فى العثور على من يكونون فى مستوى رجلته وثقته . .

وسارع ، فعـزل جميع الولاة السابقين الذين عملوا فى خـدمة المظالم السابقة . ثم ولى مكانهم من اصطفاهم للمهمة الجليلة أمثال : « ابى بكر ابن حزم » و « عبد الرحمن القشيرى » و « عدى بن ارطاة الفزارى » وآخرين من طرازهم واخوانهم .

وكان اول ما اوصاهم به ، هذه الوصاة الجامعة الرائعة :

« كونوا فى العدل والاصلاح والاحسان ، بقدر من كانوا قبلكم فى الظلم والفجور والعدوان » . . . !!

كذلك ، كان اول ما قدم به ولاته للناس هذه الكلمات الامينة :

« انى قد وليت عليكم رجالا . .

« لا اقول انهم خياركم ، ولكنى اقول : انهم خير ممن هم شر منهم » !!

انه رجل يضـع ذاته كلهـا فوق الميزان . . وان كل حركاته وكلماته وقراراته ، ومشاعره لتتحرك بقدر معلوم . !!

ويمضى ولاته الى اقطارهم ، ويسهرون على مسؤولياتهم فى ولاء صادق . . تقودهم على الطريق وتثبت اقدامهم وخطاهم سيرة خليفتهم العادل القديس . . هذه السيرة التى كان اريجها ينتشر انتشار الضياء وعبيرها يفوح ويهب هبوب الرياح والبشريات . . !!

لقد راحوا يخجلون من كل تقصير يبدو من احـــدهم .. واذا سولت لاحدهم نفسه ، شفاها من وساوســـها بمجرد تذكر خليفته القديس فى حياته الشظفة ، ورقاعه البالية !!!

وراح الخليفة يواليهم برسائله ووصاياه .. وصية من بعـــد وصية وكتابا وراء كتاب ..

لنقرأ واحدا من هذه الكتب :

« .. اما بعـــــد

فان من ابتلى من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتلى ببلية عظيمـــة !!

« فنســأل الله عافيته وعونه ..

« وانى أدعوك أن تقف نفسك فى سرك وعلانيتك ، عند الذى ترجو به النجاة من ربك ..

« تذكر ما سلف منك من خطأ فاصلحه ، قبل ان يتولى اصلاحه غيرك ..

« ولا يمنعك من ذلك قول الناس ..

« وكن لمن ولاك الله امرهم ناصحا فى دينهم واعراضهم .

« واستر كل عوراتهم ..

« واملك زمام نفسك تجاههم اذا هربت ، واذا غضبت »!

* * *

وكما احسن اختيار ولاته ، احسن اختيار قضاته ، وامناء بيوت المـــال .

وأمر هؤلاء وأولئك ، أن يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الامناء على دين الله ، ودنيا الناس .

وراحت أضواء قداسته وقدوته تتعـالى وتتعاظم حتى كانت منارات هادية ، وسعت الدولة كلها والامة جميعها بأنوارها الغامرة وهداها الوثيـق .

* * *

ـ وثانيا : الشورى ضرورة ..

وننتقل الان الى المحور الثانى من محاور منهج الحاكم القديس وأسلوبه ، لنشهد له تجاه الشورى موقفا فذا يمتاز بالعمق والشمول

لقد ادرك ان كل ما يشيده من دنيا صالحة ، وعالم قويم ، لن يكون ثمة ضمان لاستمراره وانمائه سوى سياج منيع يصونه ويحميه وتمثل له هـذا السياج فى توسـيع قاعدة المسـئولية حتى تنتظم أصحاب الحق فيها ، حاكمين ومحكومين .

والسبيل لذلك ، الشورى الخالصة الصادقة .. وبعث رأى عام ناصح ، وصادق ، وشجاع . ينقد الاخطاء ويسهم فى اصلاحها .

لم يكن عصره قد عرف النظم البرلمانية بعد .. ولكن ديموقراطية الحاكم مع ذلك كانت تتبين وتسـفر كالشمس من خلال اسـلوبه فى الحكم ، وطريقته فى اختيار ولاته وبطانته ، واستعداده لتقبل النقد ، وسماع كلمة الحق . ونظرته الى الامة التى يحكمهـا ، ومدى ولائه لحقوقها وحرياتها .

وبهذا المعيار والمسبار ، يقف « عمر بن عبد العزيز » فى هـذا المجال وكأنه نسيج وحده !!

لقد احاط نفسـه بالابرار الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، والذين لا يزيفون اقتناعهم ، ولا يلبسون الحق بالباطل ، وان قطعت منهم الرقاب ..

جمعهم حوله ، يفكرون معه .. بل لقد كان يوصى بعضهم ان يجلس تلقاءه وهو فى مجلس الحكم ، ويضـع عينيه المفتوحتين على حديثه ، وحركاته فان نسى فقال كلمة ، او اتى حركة فيها شبهة من خطأ ، نبهوه على الفور باشارة ، تعارف واياهم عليها ..

* * *

لقد آمن بأن الشورى ضرورة ، وليست ترفا .. وآمن بانها كلما اتسعت قاعدتها ، استقام الحكم وشاع الحق ، واستوثق العـدل ، وعاش الناس كما يريد لهم دينهم وكما ولدتهم امهاتهم احرارا .

من اجل ذلك ، راح فى سرعة الضوء يخلق رايا عاما صـادقا امينا فى طول الدولة وعرضها .

وراح يضـع الحاكمين والمحكومين وجها لوجه امام مسئوليتهم المشتركة ، بل الواحدة فى دحض الخطأ والتزام الصواب .

فيكتب للولاة قائلا :

« انكم تعدون الهارب من ظلم امامه عاصيا ..
« الا ان أولاهما بالمعصية الامام الظالم » !!

ثم يكتب للناس فى شتى الاقاليم قائلا :

« اى عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة ، فلا طاعة له عليكم . وقد صيرت امره اليكم ، حتى يراجع الحق وهو ذميم . . !! »

ويرسل الى احد ولاته قائلا :

« قد كثر شاكوك . . وقل شاكروك . . فاما اعتدلت ، واما اعتزلت » !!

هكذا رفع سلطة الشعب فى وجه سلطة الحكم ، واسلم نواصى ولاته وعماله للراى العام يقودهم على طريق الحق طائعين او كارهين .

ولكى يدعم هذه السلطة ، فتح ابوابه على مصاريعها لكل شاك او متظلم من حاكمه ووالية . . وارسل منشورا موجزا الى جميع الاقطار :

« من ظلمه امامه مظلمة ، فلا اذن له على » . .

اى ليقتحم على دارى ، غير منتظر اذنا ، وغير واقف ببابى !!

* * *

وانه ليبهرنا اسلوبه الفريد فى بعث الراى العام الشجاع ، وتزكية حرية النقد ، وشد زنادها الى اقصاه .

ففى سبيل ذلك نراه يرسم من بيت المال جوائز مغرية لكل من يكشف عن خطأ ، ويهدى الى صواب .

ولنطالع فى اجلال ، المنشور الذى كتبه ، ثم امر ان يقرأ على الناس فى المواسم والمحافل والمجامع :

« اما بعـــد . .
فايما رجل قدم علينا فى مظلمة نردها ، او امر يحيى الله به حقا ، او يميت باطلا ، او يجيء بخير . فله منا ما بين مائة دينار الى ثلاثمائة دينار . بقــدر ما يتكاعده فى ذلك من طول السفر وبعد الشقة » . . !

اليس عجبا هذا الذى نقرا ونرى . . ؟!

الا ، وان اعجب من ذلك ، ان بطـــل هـــذا كله رجل لم تسكن بيئته ولا عصره بقادرين على تشكيل بنائه . .

لكنها صبغة الله . . ومعجزة الاسلام . . !!

ولكم كان صادقا حين قال :

« لو وكلنى الله الى نفسى لكنت كغيرى » . . !!

لقد راح يضرب المثل الاسمى والقدوة الباهرة فى تقبل النقد ، وهو الذى لم يعرف الناس له ـــ خلال خلافته كلها ـــ خطأ واحـــدا يستأهل النقد والتفنيد . .

ولقد كانت الغبطة تملأ روحه حين يجد من عامة الناس من يقول له : الى اين ؟ ولماذا ؟ !

هنالك يربت على كتفه ، ويدنيه منه ، ويقول له :

« زدنى يا اخى ، جزاك الله خيرا » !!

انه يلتمس الحكمة والصواب وراء السنة الصادقين حتى حين يكون احدهم طفــلا .

قدم عليه وفد من المدينة يوما ، وتقدم من بينهم غلام صغير ليتحدث باسمهم ويعرض قضيتهم . فتملاه امير المؤمنين ، وقال له :

« يا بنى : دع القول لمن هو اسن منك » .

ويبدو ان الغلام العربى الاصيل كان يحمل نبوغا مبكرا ، فقد اجاب الخليفة من فوره :

« يا امير المؤمنين . .

المرء بأصغريه : قلبه ولسانه . .

« ولو كان الامر بالسن ، لكان فى المسلمين من هو احق بهذا الامر منك » . . !!

وفجاة ، تنثال دموع الغبطة والفرح من عينى القديس ، ويتهلل وجهه ، ويهتف بالغلام :

« صدقت . . صدقت . .

« عظنى يا بنى . . !! »

وان احد الناس ليقتحم مسجد المدينة يوما شاهرا سيفه ، يسب ويشتم امير المؤمنين على ملأ من الناس ، وعلى مسمع من المدينة وحاكمها ، فيعتقله الوالى . . ويرسل لامير المؤمنين بامره ويقول فى كتابه : « لقد هممت ان اقتله » .

ولا يكاد عمر يقرا الرسالة حتى يجيب عليها فورا :

« اما والله ، لو انك قتلته لقتلتك به » . . !!

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجل من عامة الناس ، رافعا عقيرته فى وجه الخليفة بكلمات تثير غيظ الحليم .

فما يزيد امير المؤمنين على ان يقول للرجل :

«لعلك اردت ان يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم فى الدنيا ما تتقاضاه منى غدا عند الله

« ولـــكن ، لا . .

« قم عفا الله عنك » . . . !!

* * *

ومن اذكى وابلغ ما اداه ـــ ابن عبد العزيز ـــ فى سبيل انهاض راى عام امين على مسئولياته وقادر عليها . . . حسر ذلك المد الطاغى لدولة الشعر والشعراء التى كانت قائمة يومذاك .

لقد راينا فيما سلف من حديث كيف اصطنع الامويون الشعراء لتزييف الحق ، وتمكين سلطانهم على حساب كل القيم والاخلاقيات ، حتى لقد كانوا عقبة كؤودا فى سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها . . والآن يتقدم البطل القديس ، مطلقا رياح الحقيقة وراء هذا الضباب فتكنسه وتبدده ، وتترك آفاق المعرفة نظيفة يقية مشرقة بنور الحق وحده . .

لقد وقف يخطب الناس فقال :

« من اراد ان يصحبنا ، فليصحبنا بخمس او فليفارقنا . .

* يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها . .
* ويعيننا على الخير بجهده . .
* ويدلنا على ما لا نهتدى اليه من الخير . .
* ولا يغتابن عندنا احدا . .
* ولا يعرضن لنا لا يعنيه . . »

ومن الدلالة الطريفة والبالغة ، ان جميع كتب التاريخ التى تنقل هذا الخطاب ، تتبعه بقولها :

« فانفض عنه الشعراء والخطباء ،
وثبت معه الزهاد والفقهاء .. !! »

اجل .. فمعظم شعراء عصره ، وعلى راسهم ـــ الاخطل ، والفرزدق ، وجرير ، لم يكن لهم مع هذه الخمس ولا مع واحدة منها رحم ولا قرابة .. !!

فهم اما مادحون بغير حق .. واما هاجون بغير حق أيضا .

وهم فى كلتا الحالتين يحرمون الراى العام رؤية الصدق بما ينشرون من اضاليل وبهتان .

والآن يجيئهم رجل عظيم ، لا حاجة به اليهم .

فليست له عداوات ، يحتاج للشعر فى تاجيجها ..

وليس له طموح يحتاج للشعر فى قرع الطبول له ..

وليست له شهوات يحتاج للشعر فى تزيينها ، ولا اخطاء يحتاجه لتبريرها ..

وليس له بالسلطة ولع ، فيحتاج للشعر فى حمايتها واستبقائها .

ثم انه لا وقت لديه ، ولا وقت لدى امته لهـــذا الهذر العريض الذى ملأ به الشعراء ساحة العصر الاموى كله .

وهكذا جمع عزمه ، وطرد الشعراء عن بابه ، ولم يعد احد منهم يظفر بدرهم واحد من اموال الامة ، مكافأة على مدح او اتقاء لهجاء . !

وراح — امير المؤمنين — يشرف بنفسه على امداد الراى العام بكل الصدق ، وبكل الحقيقة عن طريق منشوراته التى كان يرسلها للولاة ، ويبعث بها الى شتى الاقطار .

ولقد بدا بدحر تلك الفاحشة التى كان الحكم الاموى يمارسها فى سفالة . وهى لعن الامام على كرم الله وجهه على المنابر .

وامر ان يقرا الخطباء مكان الكلمات الآثمة ... تلك الآيات الطاهرة :

* « ربنا اغفر لنا ، ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ،ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا انك رؤوف رحيم »

---

* « ان الله يامر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »

* * *

لقد وضع الكذب ، ورفع الصدق ..

ودحر الباطل ، وآزر الحق ..

وكان ذلك اسهاما فعالا فى انهاض راى عام حصيف وامين ..

وامير المؤمنين « عمر » لا يدرك عظمة الشورى وقيمتها ادراك حاكم عادل صالح فحسب .. بل انه كذلك ليدرك جوهرها ادراك فيلسوف .

فهو لا يرى فيها مجرد تنظيم عادل لعلاقة السلطة بالامة، وتبادل المسئولية تجاه الدولة والمجتمع .. بل يمضى فى اتجاه التحليل النهائى

لجوهرها ووظيفتها ، ليرى ذلك متمثلا فى ظفر كل فرد من الناس بحقه فى اختيار اقتناعه . . وحق هذا الاقتناع فى التعبير عن نفسه . فى غير زيف او غموض .

ذلك ان الناس حين يزيفون اقتناعهم بسبب رغبة ، او رهبة ، فانه يستحيل فى نفس الوقت ، ولنفس السبب معرفة آرائهم .

ومادامت الآراء الصادقة هى مادة الشورى وادواتها ، فان اختفاء هذه الآراء اذن ، يعتبر وادا للشورى والغاء لمهمتها .

وهنا تطل علينا عظمة القديس « عمر » وهو يضع اقتناع الناس — حتى حين يخالفهم ويخالفونه — موضع القبول والتقدير .

والوقائع التى تحكى ولاءه الوثيق لحرمة الاقتناع تزدحم بها الشهور التسعة والعشرون التى قضاها خليفة واماما . . لكننا نختار منها هذه الواقعة التى تكاد تعطينا التعبير النهائى لهذا الولاء .

لعلنا نعرف الكثير عن الخوارج الذين انشقوا على الامام على كرم الله وجهه ، حتى اغتاله واحد منهم . . هؤلاء الذين تحولوا بعد ذلك ، وخلال العصر الاموى الى فرق كثيرة ، حملت سيوفها وخاضت ضد الدولة معارك كثرا ذهب منهم خلالها الوف الضحايا .

وبالاضافة الى نشاطها المسلح هذا ، فقد كان لبعضها آراء وعقائد لا يزكيها قرآن ولا سنة .

ومع ذلك كله ، نرى الخليفة العابد الاواب لا ينسى حتى فى فتنهم هذه ، حقهم فى ان يكون لهم اقتناعهم ، ثم لا ينسى واجبه فى احترام هذا الحق لهم ، وواجبه فى اعطائهم فرصة التعبير عن رايهم بصوت

مرتفع ، مادام نشاطهم لا يتحول الى عمل ارهابى يستهدف سفك دماء الآخرين الذين يخالفونهم فى اعتقادهم واقتناعهم .

بل اننا سنراه يرى بحصـــانته الباهرة ، ان الســـبيل الامثل لصرفهم عن التآمر والارهاب ، هو رفع الغطاء عن البخار المحبوس ، وتمكين الراى الحبيس المكبوت من الانطلاق ، قبل ان يتحول داخـــل نفس صاحبه المقهورة الى حقد موتور ، وقذيفة رعنـــاء . . !!

وهكذا ، لا تكاد احدى تلك الفرق تتحرك فى الايام الاولى لخلافته مستأنفة تمردها المسلح ، حتى يرسل الى زعيمها هذا الكتاب :

« اما بعـــد . . .

«فقد بلغنى انك خرجت غضبا لله ولرســوله . . ولست اولى بذلك منى . .

« فمهلم اناظرك . .

« فان يكن الحق معنا ، تدخل فيه ، وان يكن الحق معك ، نراجع انفسنا وننظر فى امرنا . . !! »

ويقرأ الزعيم الثائر كلمات «القديس» فيخجل من نفسه ، ويلقى سلاحه . ويرسل مبعوثين الى عاصمة الخلافة ، يجريان مع الخليفة حوارا حول ما بينهما من قضايا وخلاف . ويجرى الحوار بينهما رائعا ، سادما ، تتجلى خلاله موهبة « ابن عبد العزيز » فى رؤية الحقيقة ، وتوجيه المنطق ، وامتلاك الافئدة والعقول . .

ثم تكون عاقبة هـــذا الموقف العظيم ، أن تلقى تلك الفـــرقة المتمردة سلاحها ، بعد ما تبينت انها فى عصر رجل جـــديد ينتمى لعصر

النبوة والوحى .. رجل يخجل الشيطان نفسه ان يشغب عليه ، او يتحداه .. !!

على ان لهذه الواقعة — رغم دلالتها المفيضة — مثيلا آخر يكمل الصورة التى ترسم ولاء هذا الخليفة العظيم لحرية الراى وحرمة الاقتناع .

فهو على الرغم من معرفته بفساد الكثير من منطق الخوارج وحججهم ، لم ير القوة قط سبيلا لدحض هذا المنطق واسكاته — بل راى ان قيام منطق اهدى ، وحجة اوضح واصدق ، هو السبيل لاظهار الحق واخماد الباطل .

وهكذا نلتقى به ، وقد قامت فرقة اخرى من الخوارج — هم « حرورية الموصل » — يسيحون فى البلاد ناشرين آراءهم وافكارهم . ويكتب اليه حاكم الموصل ، يستأذنه فى قمعهم واسكاتهم ..

اقول : نلتقى بأمير المؤمنين يجيب واليه فيقول :

« اذا راوا ان يسيحوا فى البلاد فى غير اذى لاهل الذمة .. وفى غير اذى للامة .. فليذهبوا حيث شاءوا ..

« وان نالوا احدا من المسلمين ، او من اهل الذمة بسوء ، فحاكمهم الى الله .. »

بالله ، ما اعدله .. وما اروعه .. !!

انه لا يرى لنفسه حقا — اى حق — فى الحجر على آراء الآخرين ولا الوصاية عليها .

وهو كحاكم — لا يرى لنفسه اى حق فى التدخل الا حين يواجهه خطر مسلح يتهدد سلامة الدولة والامة .

اما دون ذلك ، فلكل راى حرمته ، ولكل اقتناع حقه وحريته .

وهذا النهج الراشد السديد ، هو الذى مكن للشورى فى عهده تمكينا تكاد تتقطع دون بلوغه انفاس كثير من الديموقراطيات . .

ولطالما قالوا له يومئذ : ان هؤلاء الخوارج ينشرون بين الناس افكارا زائفة ، ويلبسون الحق بالباطل ، وان تركهم يجوبون البلاد بعقائدهم هذه ، عمل ينذر بسوء مآب .

فلا يزيد القديس العادل على ان يذكر محدثيه ومحرضيه بآيات القرآن الكريم التى نهى الله فيها رسوله عن ان يسوس ضمائر الناس بالقهر والبطش :

« افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . . ؟

« وما انت عليهم بجبار » . .

« انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .

ولقد وقفت العواقب بجانبه ، واثبتت صدق رايه وذكاء تقديره: فالخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم يوما واحدا منذ حكم معاوية ، حتى سليمان بن عبد الملك ، والذين لم تزدهم كثرة ضحاياهم الا ايمانا فى التحدى وضراوة فى القتال . . نراهم فى عصر هـذا القديس الجليل يغمدون سيوفهم ، وينسون طوال عهد خلافته كل ما لهم عند الامويين من ترات ، وثارات . .

— وثالثا : المال وديعــة ..

وأمام المشكلات الاقتصادية — مشكلات الدخل والتوزيع — التى تحير الدول فى كل العصور والازمان ، لم تأخذ « عمر » حيرة ، ولم تعضله أزمــة .

ذلك أنه مؤمن بأن الحق والعدل قادران على تدبير أمرهما أعظم واهدى مما تدبر المع عبقريات التنظيم والاقتصاد .

والدولة المسلمة — يومئذ — لم يكن ينقصها المال .. انما كان ينقصها اتباع الحق فى تقاضيه .. واتباع العدل فى توزيعه ..

وقبل هذين ، بعث حرمة الاموال العامة وقداستها فى ضمير الدولة ، بكل مسئوليها ... وفى ضمير الامة ، بكل افرادها ..

أن موقفه من الثروة القومية ، يبدأ من ايمانه بقول الله تعالى :

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

فمصادر الانتاج ، والانتاج ، والثروة .. كل ذلك اذن وديعــة الله عند الناس .. دولا ، وأمما ، وجماعات ، وأفرادا ..

ولودائع الله هذه حرمتها التى تنأى بها عن التلف ، والسرف ، والبغى ، والاحتكار .

فاذا اكتسبت هذه الودائع صفة أخرى ووصفا آخر ، فصارت أموالا عامة ، فان حرمتها وقداستها تربوان وتزدادان .

ذلك ان معنى كونها « أموالا عامة » انها حقوق شائعة وثابتة لكل افراد الامة .. لكل ارملة فيها وكل يتيم .. لكل مسن وطفل ، ورضيع .. لكل فقير ، وعاجز ، ومريض ..

وهى بهذه المثابة . مثابة انها ، اولا : ودائع الله ، وثانيا : حق الناس ، جميع الناس . . تتمتع بحرمة بالغة وقداسة وثقى .

و « ابن عبد العزيز » يرى نفسه مسئولا عن اعلان هذه الحرمة وصيانة هذا الحق .

وانه ليعبر عن ذلك فى كلماته الفاصلة :

« انما أنا حجيج المسلمين فى مالهم » !!

كما يعبر بسلوكه تجاهها تعبيرا يبهر الالباب . .

انه يرسل خادمه يوما ليسخن له بعض الماء كى يتوضأ به فى يوم شات زمهرير .

ويعود الخادم مسرعا بالماء الدافىء ، فيسأله الخليفة : اين دفأته بهذه السرعة . . ؟

فيجيب الخادم : فى مطابخ المسلمين . .

وكان « عمر » قد توسع فى انشاء مطابخ عامة للناس ينفق عليها من بيت المال . .

فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض ان يمس الماء جسده حتى يذهب الخادم الى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القدر الضحل جدا من الماء . . !!!

وانا لنعرف تلك الواقعة المتواترة ، حين كان يباشر امور الدولة ليلا على مصباح يؤخذ زيته من بيت المال ، فاذا عرض له اثناء ذلك طارىء شخصى — واو كان لا يستغرق سوى لحظات — فانه يطفىء

مصباح بيت المال ، ويوقد شمعته أو مصباحه ، حتى ينتهى من ذلك الطارىء .. !!

ولقد يرى البعض فى هذا المسلك نوعا من التزمت المغرق ..

ولقد يرون فى اعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام انورع من رئيس دولة مظلمى ، كالدولة التى كان يحكمها — ابن عبد العزيز — امرا غير مألوف .. وربما غير مستساغ ..

غير انهم حين يفكرون على هذا النحو يفوتهم ان الذى كان يحرك اهتمام الخليفة وورعه ، لم تكن تلك الشكليات ذاتها .

انما هو المعنى الكبير الذى يملأ ضميره ، ويشكل سلوكه تجاه الاموال العامة وحرمتها وقداستها .

وبعد ذلك يستوى ان يكون هـذا المال . عدل درهم من زيت مصباح .. او ملء حجرة فضة وذهبا .. !!

انه يذكر ، ويذكر الناس دائما بالآية الكريمة :

« ومن يغلل ، يأت بما غل يوم القيامة » !!

والغلول عنده فى احقر الاشياء ، مثلما هو فى اكثرها واخطرها .

وفيما يستأثر به لنفسه ، مثلما هو فيما يجود به على غيره .

بل حتى الهدايا ، رآها غلولا ، او شيئا يشبه الغلول .

جاءته يوما هدية ، فاعتذر عنها .. فقيل له : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ..

فأجاب قائلا :

« لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رشوة » !!

* * *

ان موقفه من اموال الامة لعجيب . ثم عجيب . . !!

وان لها فى فؤاده الذكى التقى لحرمة تضاهى حرمة الايمـــان ذاته ، وحرمة التوحيد . . !!

يطلب منه احد ولاته الاذن بمزيد من الشـــموع التى كانت دار الامارة تضاء بها ، ويضاء بها للامير وهو فى طريقه الى المسجد لصلاة العشاء والفجر .

فيجيبه الخليفة بكتابه هذا :

« لقد عهدتك يا ابن ام حزم ، قبل ان تكون واليا ، تخرج من بيتك فى الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح . .

«ولعمرى ، لانت يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان فى فتائل اهلك ما يغنيك » !!!

ويكتب اليه وال آخر ، يطلب المزيد من الاقلام وورق الكتابة ، فيجيبه الخليفة ايضا :

« اذا جاءك كتابى هـــذا ، فارق القلم ، واجمع الخـــط ، واجعل الحوائج الكثيرة فى الصفحة الواحدة . .

« فانه لا حاجـــة للمســـلمين فى فضـــل قول اضر ببيت مالهم . . » !!

هنا بيت القصيد . . « اضر ببيت مالهم » !!

فالمشكلة ليســـت مشكلة قليل او كثير من الشـــموع والاقلام والاوراق . . فما من دولة يعجزها ان تملأ ارضها شموعا واقلاما وورقا

انما المسألة فى وعى « الحاكم القديس » هى حرمة هذه الاموال

وقداستها .. هي تجنب التفريط والافراط فيها .. هي درجة الولاء لمسؤولية رعايتها وحفظها .. وبهـذا المعيار يصـبح كل عبث بها مرفوضا مهما تكن ضآلة مقداره .

ذلك ان الاسراف الذي يتمثل اليوم في شمعة او قلم .. سيتمثل غدا ـــ اذا استهين بأمره ـــ فيما هو أوخم عاقبة واسوا مصيرا .

* * *

هكذا ارسى لحرمة الاموال قواعد راسخة من الاجلال والتقديس ونعود الى موقفه من « مشكلة الدخل والتوزيع » ..

قلنا : ان الدولة يومها لم يكن ينقصها الثراء ... انما كان ينقصها تقصي الحق في جمعه .. والعدل في توزيعه ..

ففيما يتعلق بالدخل .. نرى الخلفـاء قبله ، وقد أرهق الترف والسرف ميزانية الدولة ، راحوا يعوضون ذلك بجمع المال بوسـائل غير مشروعة ، وضرائب غير عادلة .

فاهل الكتاب الذين يعتنقون الاسلام ، يضع عنهم الدين ضريبة الجزية فورا .. ولكن الدولة الاموية تابى في ذلك حكم الاسـلام ، وتبقي الضريبة فوق كواهل الذين اسـلموا ، مبررة ذلك بانهم انما يسلمون فرارا من الضريبة .. !!

ويجيء الخليفة العادل فيرفض هذا التبرير الزائف ، ويعلن ان فرح الاسلام بفرد واحد يدخل دائرة نوره وهداه ، خير من ملء الارض مالا وذهبا .

ويطلق امير المؤمنين كلماته المضيئة هذه :

« ان الله بعث « محمدا » هاديا ولم يبعثه جابيا » !!

ولقد ارسل اليه واليه على العراق « عدى بن ارطاة » : يقول « ان الناس قد دخلوا فى الاسلام أفواجا ، حتى خشيت ان يقل الخراج » ...

فيجيبه الخليفة المقسط العظيم :

« والله ، لوددت أن الناس كلهم يسلمون ، حتى نكون انا وانت حراثين نأكل من كسب أيدينا . !!! »

كذلك راح يتتبع كل الضرائب التى كان الخلفاء السابقون قد فرضوها على الناس فألغاها جميعها .

بل وحتى الضرائب المشروعة ، مثل زكاة الزروع والثمار ، كان يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح ، أو تتعرض لبوار .

ها هو ذا يكتب لواليه على اليمن « عروة بن محمد » :

« أما بعد ...

« فقد كتبت الى تذكر انك قدمت اليمن ، فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة فى اعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال .. ان أخصبوا ، أو أجدبوا ... ان حيوا ، أو ماتوا . « فسبحان الله رب العالمين !! ثم سبحان الله رب العالمين ! !

« اذا أتاك كتابى هذا ، فدع ما تنكره من الباطل ، الى ما تعرفه من الحق ...

« واعلم أنك ان لم ترفع الى من جميع اليمن الا حفنة من كتم(١) فقد علم الله انى سأكون بها مسرورا . ما دام

---

(١) الكتم : نبات يخضب به الشعر ، ويصنع منه مداد للكتابة .

فى ذلك ابقاء على الحق والعدل » . . !!!

ولعل بعضـــنا يأخذه العجب . . فبينما كان المتوقـــع منا ونحن نتحدث عن « الدخل » ان نشير الى اكتشاف مصادر جديدة تزيده ، وموارد ثرة تضـــاعفه وتنميه ، اذا بنا نطرى سياســـة الخليفة تجاه الدخل العام ، لانه الغى الكثير من تلك المصادر والموارد . . ؟!

ولكن ، ما حيلتنا ، وهذه فلســـفة القديس المبـــارك الميمون « ابن عبد العزيز » . . ؟!

ان المســـألة عنده ليست مسئلة كثرة . . بل مســـألة وفرة . .

والوفرة ، تكون فى بركة الحلال المشروع ، لا فى كثرة الحـــرام المغتصب .

ولعل من واجبنا قبل ان نغادر هذه النقطة من الحـــديث ، ان نقول لبعض المؤرخين الذين يردون اضطراب مالية الدولة بعد موت امير المؤمنين « عمر » الى سياسته الضرائبية هذه . .

من واجبنا ان نقول لهم : اغلب الظن انكم مخطئون . .

فلقد ســارت الامور فى عهده كله على اتم نسق . ولم تكن تنذر باى عجز او اضطراب . بل كانت على العكس من ذلك ترهص وتبشر بمزيد من النماء والرخاء والاستقرار .

انما اضطربت فيما بعد ، حين غاب « البطل » عن مسرح العدالة والحق . . وعاد الترف والسرف والفساد ، وسياسة السـطو مرة اخرى تعبث وتمرح ، بعد أن رحل الحارس اليقظ ، والحاكم القديس !

على أن «الخليفة» حين الغى الضرائب الظالمة ، اتاح فى نفس الوقت موردا ثرا للدولة ، حين رد اليها جميع الارض والثروة التى كانت تحت أيدى الامراء .

وموردا آخـــر ، اعتبره امير المؤمنين من أعظم مصـــادر الدخل واثراها .. ذلكم هو وضع كل درهم فى مكانه وضرورته .. وتحريم كل تبذير ، وتجريم كل سرف .

أجل .. لقد كان ـــ ولا يزال ـــ وضع المال فى مكانه الصحيح ، وداخل ضرورته الملحة وحدها ، خير مورد وأبقى مصدر ..

ولقد التزم « عمر » هذا النهج التزاما يكاد يكون مطلقا مع نفسه ومع اهله ، ومع ولاته ، ومع ذوى قرباه ، واصـــدقائه ، والنـــاس اجمعين .

ها هو ذا احد المقربين اليه ، الاثيرين لديه « عنبسة بن سعيد » يذهب اليه يوما ، يسأله حاجة لنفسه .

فلنطالع جواب الخليفة له :

« يا عنبســـة ..

« ان يـــكن ما لك الذى عنـــدك حلالا ، فهـــو كافيك .

« وان يـــكن حراما ، فلا تضيفن اليه حراما جـــديدا ..

« اخبرنى يا عنبســـة ..

امحتاج انت ..؟ لا ..

افعليك دين ..؟ لا ..

« اذن ، فكيف تطمع فى أن اعمد الى مال الله ، فاعطيكه

فى غير حاجة .. وادع فقراء المسلمين ؟!
« لو كنت غارما ، لاديت عنك غرمك .. او محتاجا لأمرت لك بما يصلح شانك ..
« فليكن لك فى مالك غناء ..
واتق الله ، وانظر من اين جمعته ، وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك اسرع الحاسبين » ... !!!

ان هذا الذى قاله لصديقه الحميم « عنبسة » كان يقوله لكل من يسأله ما ليس له بحق .. على أن هذا الذى هو حق فى تقديره ، لم يكن يتمثل عنده الا فى ضرورات العيش والحياة .

وهكذا أتيح له ان يحول شهقات البائسين الى بسمات متهللة ، وفرح غامر ، دون ان يحـــول السراة الى طبقة بديلة للبائســـين ..

ان كل ما صنعه بهم أنه اخـــذ منهم ترفهم وتخمتهم ، ثم تركهم يحيون كراما متواضعين ... !!

* * *

وهنا ينقلنا الحديث من الدخل ، الى التـــوزيع .. فكيف راح الحاكم القديس يوزع اموال الامة ، واين كان يضعها ..؟؟

لقد رد المال الى وظيفته الحقيقية ، الى دوره الاصيل ومسؤوليته الاولى فى خدمة الامة وتغطية احتياجاتها :

لقد بدا . فرسم حدود الكفالة الشاملة التى ستنهض بها الدولة تجاه مواطنيها جميعا فردا ، فردا .. وحدد بالتالى مسؤولية بيت المال تجاه تغطية هذه الكفالة كلها :

نرى ذلك فى كتابه الى ولاته :

« لا بد لكل مسلم من :

* مسكن يأوى اليه ..
* وخادم يكفيه مهنته ..
* وفرس يجاهد عليه عدوه ..
* واثاث فى بيته ..

« فوفروا ذلك كله ..

« ومن كان غارما ، فاقضوا عنه دينه » ..!!!

والتعبير بكلمة « مسلم » هنا .. لا تعنى قصر هذه المزايا بل الحقوق على المسلمين وحدهم . انما استعمل هذا الوصف لغلبته لا اكثر .. ثم كانت هذه المزايا والحقوق من حق المواطنين جميعا — مسلمين واهل كتاب ...

وامر الخليفة ولاته ان يبداوا بتغطية حاجات اقطارهم . وما فاض وبقى يرسل الى الخزانة العامة .. ومن قصر دخل اقليمه من تغطية حاجات اهله ، امده الخليفة بما يغطى عجزه :

« استوعب الخراج واحرزه فى غير ظلم ..

« فان يك كافيا للناس ، فحسبنا .. والا فاكتب الى حتى ابعث اليك من المال ما توفر به للناس اعطياتهم » ...!!

* * *

وراح « المبارك الميمون » ينشىء فى طول البلاد وعرضها دور الضيافة ، يأوى اليها المسافرون وابناء السبيل ..

ومضى ، يرفع مستوى الاجور الضعيفة ..

وكفل كل حاجات العلماء والفقهاء ليتفرغوا لعلمهم ورسالتهم دون ان ينتظروا من ايدى الناس اجرا ..

وسخا على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يتفرغوا لمهامهم ، وحتى لا تضعف نفوسهم امام اغراء الحرام ... !!

وعلى طول الدولة وعرضها كذلك ، امر لكل اعمى بقائد يقوده ويقضى له اموره على حساب الدولة ..

ولكل مريض او مريضين بخادم ، على حساب الدولة ..

وامر ولاته باحصاء جميع الغارمين ، فقضى عنهم ديونهم ..

وافتدى اسرى المسلمين جميعا ، واغدق عليهم العطاء ..

وكفل اليتامى الذين لا عائل لهم فى جميع اقطار دولته المترامية ..

وكما فعل جده العظيم — عمر بن الخطاب — من قبل ، فعل هو ايضا ، فامر ان يفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته ، وليس بعد فطامه ، حتى لا تتعجل الامهات فطام الرضعاء فيتعثر نموهم ، وتضمحل قواهم .. !!

ومن اجل الا يتحول عطاء الدولة الى فرصة للطامعين ، منع ان يجمع احد بين عطاءين ...

وحرم على جميع العاملين والموظفين ، الجمع بين راتبين مهما تكن الاسباب .

* * *

وهكذا تقسط الناس جميعا فى عهده العظيم ما افاءه الله عليهم من خير ورزق .

وانا لنكاد تذهل امام ذلك الاجماع التـــاريخى الذى يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء فى عهد القديس الورع ، عمر بن عبد العزيز ، حتى لقد كان الاغنياء يخرجون بزكاة اموالهم فلا يجدون فقيرا يأخذها ، ويبسط يده اليها . . . !!!

ذلك أن عدل « ابن عبد العزيز » لم يكف الناس حاجاتهم فحسب بل وملأهم شعورا بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم الصدقات مهما تكن كبيرة وكثيرة، بعد أن أغناهم الله من فضله بالحق، وبالعدل، وبعبده الصالح « عمر بن عبد العزيز » !!!

* * *

ـــ ورابعا : وحدة الأمة وسلامها . .

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعا ممزقا يتربص بعضه ببعض الدوائر . . ويتربص كله بالدولة الدوائر . . !!

فخلفاء بنى امية ، كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحذ العصـــبية والقبلية والاقليمية ، فيختص احـــدهم بعطفه القيسية ، ويختص آخر اليمانية . . ويميز احدهم اهل الشـــام . . ويميز آخـــر اهل العراق .

وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة الى القبـــائل وزعمائها ، فظهر من ينادى بسيادة اهل الحضر ـــ وفى مواجهتهم ، ظهر من ينادى بسيادة اهل البادية .

كذلك كان الخلفاء الامويون قد جنحوا للهبوط بمكانة المسلمين من غير العرب ـــ اولئك الذين عرفوا باسم « الموالى » ففرضوا عليهم

الجزية ظلما ، وحرموهم الحقوق التى يكفلها لهم الاسلام ، على الرغم من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء الاسلام عاليا فى كل مجال .

كذلك كان هناك الفرق الكثيرة من شيعة وخوارج ومعتزلة منهم من يحمل السلاح فى وجه الدولة وفى وجه خصومه فى الراى ، ومنهم من لا يحمل السلاح ولكنه يحمل الكلمة المسمومة .. ومنهم من يلتزم حدود المنطق والحجاج .

ورث « القديس » المجتمع على هذا التمزق والتشتت ، فنفخ فيه من روحه الطاهرة الظافرة نفخة مباركة نفت عنه فى لحظة كل هذه الخبائث .. وطهرت لا شكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب ، بل وضميره وروحه أيضا . فشهد مجتمع الاسلام فى ايامه اخاء وثيق التراحم .. واخذ كل حقه .. وقنع كل بحقه .. !!

فاما عن الخوارج ، فقد راينا كيف اسكتهم بالحجة والبرهان .

واما الموالى ، فقد وضع عنهم اصرهم ، وصحح وضعهم .

واما النزعة القبلية والاقليمية ، فقد طواها بيمينه .

ولم يعد هناك فيسيون ويمنيون .. ولا عراقيون وشاميون .. ولا عرب وموال .

لقد عادت رحم الاسلام تنتظم جميع ابنائه كالعقد المنظوم ، وسيطرت من جديد روحه العظيمة المتمثلة فى قول الله تعالى :

« انما المؤمنون اخوة »

* * *

To: www.al-mostafa.com

ولم يقف تصور « ابن عبد العزيز » لوحدة الامة عند هذه الحدود وحدها .. بل امتد ايمانه بالوحدة وفهمه لها الى وضع الاقليات فاكد دمجها فى جسم المجتمع المسلم ، وصان لها كل حقوقها .

ولقد رأينا فى رسالة مرت بنا من قبل ، ارسلها لاحد ولاته بشأن بعض الخوارج فقال له :

« ان ساروا فى الارض دون اساءة لاهل الذمة ، وللامة ، فدعهم » ..

وفى كتب كثيرة لولاته ، نراه يؤكد على الوصاة باهل الذمة ، اولئك الذين اسماهم الاسلام — اهل الذمة — توكيدا لما فى ذمة المسلمين لهم من عهد وميثاق ... !!

لقد كانوا الى يوم استخلافه، يلاقون الكثير من العنت. ويقبعون تحت وطأة ضرائب ظالمة .. فما كاد يتولى امر الامة حتى اصدر اوامره الحازمة بالا يؤخذ منهم سوى الضريبة التى شرعها الاسلام لقاء توفير الأمن لهم .

وان موقفه من قضية « كنيسة يوحنا » بدمشق لمثل رائع وباهر على عمله العظيم والنبيل لدعم الامة كامة ، بصرف النظر عن اختلافه الدين والجنس واللون فيها .. !

كان « الوليد بن عبد الملك » قد هدم جزءا كبيرا من كنيسة يوحنا ، ليقيم عليه امتداد المسجد الاموى المشيد .

وحين ولى « عمر بن عبد العزيز » الخلافة . شكا اليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم .

ترى ، ما ذا يصنع امير المؤمنين ؟

ان الجزء الذى تهدم من الكنيسة قد صار مسجدا .

وان اقصى ما يستطيعه حاكم عادل فى مثل هذا الموقف ان يعطى تعويضا سخيا ، او ارضا بديلة .

لكن « ابن عبد العزيز » يتعامل مع العدل والحق باسلوب مختلف عن اساليبنا . . انه اسلوب قديس جليل !!

وهكذا اصدر امره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ، واعادة الارض التى اقيم عليها الى الكنيسة . . !!

ودارت الارض بعلماء دمشق وفقهائها ، فارسلوا وفدهم لاقناع امير المؤمنين بالعدول عن قراره .

ولكن امير المؤمنين، اصدر امرا جديدا حدد فيه اليوم بل الساعة التى يجب ان تتم فيها عملية الهدم والتسليم . . !!

ولم يجد العلماء سبيلا لانقاذ المسجد سوى ان يفاوضوا زعماء الكنيسة فى دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقا يرضونه ، ويتنازلوا بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم . ثم يذهب وفد من الفريقين لابلاغ الخليفة نبأ الاتفاق . فيحمد الله عليه ، ثم يقره ويرضاه . . !!

* * *

بم اذن نفسر ذلك الموقف الذى اتخذه من بعض اهل الكتاب من النصارى . حين امر ان يعاملوا معاملة خاصة فيها تضييق عليهم ، واحراج لهم . . ؟؟

اننا فى ضوء موقفه العام الذى رأيناه ، لا نرى لموقفه الطارىء هذا تفسيرا الا ان يكون قد دعاه اليه سلوك بعض أولئك الذين عملوا كطابور خامس للامبراطورية الرومانية التى كانت تشن باسم الصليب — حروبا عدوانية على دولة الاسلام .

يزكى ذلك — فى رأينا — تلك الرسالة التى حملت أوامره بشأن النصارى . فقد ركزت اهتمامها على مصادرة ما يوجد فى دورهم من سلاح .. مما يومىء الى وجود مؤامرة كانوا يهمون بها . على أنه فى موقفه من هؤلاء ، لم يامر باتخاذ اى اجراء عنيف .

كل الذى أمر به ان يميزوا بلباسهم الخاص .. وحتى هذا الاجراء يشير الى الريبة التى داخلت نفسه تجاههم ، فاراد ان يميزهم حتى يكون هذا التمييز سبيلا لكشفهم .

فاذا جاوزنا هذه الفئة التى فقدت ولاءها للدولة وللمجتمع ، وجدنا موقفه من المسيحيين عامة موقف الحارس الامين لحقوقهم ولعهودهم ولكراماتهم .

لقد أثار موقفه من الاديان ومن حقوق الاقليات فى دولته الراشدة انبهار واعجاب العالم الخارجى من حوله ، حتى ان امبراطور الروم « ليو الثالث » وقد كان خصما عنيدا لدولة الاسلام ، لا يكاد يبلغه فيما بعد نبأ وفاة أمير المؤمنين حتى يبكى بكاء مرا ، أذهل حاشيته وأساقفته ، فسألوه فى ذلك ، فأجابهم بكلمات تعتبر من أصدق وأجمع ما قيل فى تأبين أمير المؤمنين :

لقد قال :

« مات والله ملك عادل ، ليس لعدله مثيل ..!!

« وليس ينبغي أن يعجب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد الله في صومعته .

« انما العجب لهذا الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيهـــا ..!!

« ولقـــد كان حريا ان يعجل به ، فاهل الخير لا يلبثـــون مع اهل الشر الا قليلا » ...!!

افكان هذا الامبراطور ليشهد فيه هذه الشـــهادة لو عرف عنه أدنى اضطهاد أو انتقاص لحقوق اهل الكتاب في عهده .. ؟؟

بل هل كان كبير اساقفة الرومان سيخف مسرعا حين علم بمرض الخليفة ، ليقيم الى جواره يطببه ويعالجه .. ؟؟

* * *

ونعود للعمل الذي عمله امير المؤمنين من اجل وحـــدة الامة ، لنرى كيف كان في نفس الوقت عملا في سبيل سلامها الداخلي .

فالسلام الداخلي ، انما يتوفر بالقدر الذي يتجمع فيه شمل الامة وتتآخى ارواح بنيها .

ولقد انعم الله عليه وعلى امته بما تمنى من وحدة الاسلام ..

فماذا عن السلام الخارجي ووضـــع اوزار الحروب التي كانت مشبوبة الاوار خارج الحدود .. ؟

لقد رأيناه يبدأ في الساعات الاولى من خـــلافته باصـــدار امره للجيش الذي انهكه حصار القسطنطينية بالعودة .

ثم رأيناه يفتدي جميع الاسرى على كثرتهم ويردهم الى ديارهم ووطنهم .

ثم نراه يضع حدا لكل الاعمال العسكرية التى كانت تقوم بها الدولة . . ويعلن ان الاسلام قد صار عزيزا منيعا بما تم له من فتوح ، وان على جيش الدولة الا يتحرك بعد اليوم لقتال الا دفاعا عن حدود الدولة اذا هوجمت ، وعن سلامة الامة اذا تعرضت للاخطار .

واستعاض عن زحف الجيوش ، بكتبه التى ارسلها الى ملوك الهند وحكام مقاطعاتها ، يدعوهم الى الاسلام ، فاسلم اكثرهم متأثرين بما كان قد ترامى اليهم من انبـــاء ورعه ، وزهده ، وعظمته وتقاه . .

كذلك كتب الى البربر ، فى افريقية . . يدعوهم الى الاســـلام فدخلوا فيه افواجا .

وكتب الى ملوك ما وراء النهر ، فاســـلم اكثرهم ورفعوا راية الاســـلام . .

اليس رجلا مباركا ذلك القديس . . ؟؟

* * *

ـــ وخامسا : اسلوبه فى التنفيذ . .

ماذا كانت الامة ستفيد من ورعه وزهده وتقاه وعدله ، لو لم تكن كفاءته فى التنفيذ موازية لكفاءته فى حمل المسؤولية والاخلاص لها . . ؟؟

هنا نلتقى بجانب من ابهى واغنى واقوى جوانب شخصية ذلك القديس الفطن الحازم الاريب . . نلتقى به صاحيا يقظان . .

ان كل ساعات اليوم الاربع والعشرين منذورة لمسؤولياته . .

ليس منها سوى الوقت الذى تستغرقه صلاته وعبادته . .

والساعتين او الثلاث التى يمنحها لنومه وراحته . .

أما بعد ذلك ، فلا وقت لديه الا لمسؤوليته المقدسة .

وله اسلوب فريد فى انجاز هذه المسؤولية وتنفيذ منهجها . .

فالليل ، والحزم . . والاناة ، والحسم . . والاشراف العميم ، واللامركزية . . والمطاولة ، واليقظة . . كل هذه تعمل « مجتمعة » لا « مختلطة » — فى اتساق فذ وتكامل عجيب . . !!

يبلغ به التعب يوما اشده ، فيسأله بعض خاصته ان يريح نفسه فيقول :

« ومن يجزى عنى عمل اليوم » . . ؟

فيقولون له : تنجزه فى الغد . .

فيجيب : « لقد فدحنى عمل يوم واحد حتى سألتمونى ان اريح نفسى ، فكيف اذا اجتمع على عمل يومين » . . ؟!

انه لا يجرى حسابه الختامى كل شهر ولا كل اسبوع . . بل لكل يوم مسؤوليته وحسابه الختامى ، ولا يحيل يوما على آخر . لان لكل يوم مزدحمه واحماله . . !!

وهو بالنسبة لعشرات الملايين التى تنتظمها دولته الواسعة . نداء النجدة . . لا تهتف به حاجة فرد ولا مظلمة مظلوم فى ادنى الارض واقصاها الا الفته وكأنه فى انتظارها وحدها . . !!

وصغار الامور عنده مثل كبارها . . لها نفس الاهتمام والمسارعة حمل اليه بريده يوما رسالة من الجيزة بمصر .

اما صاحبة الرسالة فاسمها « فرتونة السوداء » تشكو لامير المؤمنين . ان لها حائطا — اى بستانا — متهدما يتسوره اللصوص دجاجها ، وليس معها مال تنفقه فى هذا السبيل .

ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو فى عاصمة خلافته بالشام حتى يكتب الى واليه على مصر « ايوب بن شرحبيل » هذا الخطاب :

« من عبد الله عمر امير المؤمنين ، الى ايوب بن شرحبيل

« سلام الله عليكم . .

« اما بعد ، فان فرتونة السوداء كتبت الى تشكو قصر حائطها ، وان دجاجها يسرق منها ، وتسأل تحصينه لها .

ونفس البريد الذى حمل هذا الكتاب لوالى مصر . حمل كتابا آخر من الخليفة لفرتونة السوداء . .

« من عبد الله عمر بن عبد العزيز امير المؤمنين الى فرتونة السوداء .

سلام الله عليك . .

« اما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وما ذكرت فيه من قصر حائطك حيث يقتحم عليك ويسرق دجاجك .

« وقد كتبت الى « ايوب بن شرحبيل » آمره ان يبنى لك الحائط حتى يحصنه مما تخافين ان شاء الله » . . !!

يقول ابن عبد الحكم الذى روى لنا هذه الواقعة الباهرة :

« فلما جاء الكتاب الى ايوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى اتى الجيزة ، وظل يسأل عن « فرتونة » حتى وجدها

فماذا هي سوداء مسكينة ، فاعلى لها حائطها » .. !!

هذا خليفة قديس لم تفلت من رحمته وحسناته وعدله وابوته شاردة ولا واردة .. !!!

ولسوف يتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شيء ..

انظروا .. !!

انه يكتب لواليه على مصر ايضا :

« أما بعد ..

« فقد بلغني أن الحمالين في مصر يحملون على ظهور الابل فوق ما تطيق ..

« فاذا جاءك كتابي هذا ، فامنع أن يحمل على البعير اكثر من ستمائة رطل .. !! »

بل انه ليبصر في بعض جولاته اناسا يحملون مقارع ، في اسفلها حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم ، فلا يكاد يستقر في مجلسه حتى يوقع قرارا يحرم استخدام هذه المقارع ..!!

وتاتيه يوما سلتان كبيرتان مملوءتان من رطب الاردن فيسأل : ما هذا ؟

فيقال : رطب بعث به أمير الاردن الى امير المؤمنين .

ويعود يسأل : وعلام جيء به .. ؟

فيقال له : على دواب البريد ..

فيهز راسه ، ويقول :

« لقد حملتموها فوق طاقتها .. بيعوا الرطب ..
واشتروا بثمنه علفا لدواب البريد التى حملته .. » !!

* * *

ويبهرنا لينه ، وأناته ، وسعة صدره التى لم تعرف حدودا .

وفى تتبعنا لهذه الفضيلة لديه ، نجدها تنبع من رحمته العميقة الاصيلة ـــ هذه الرحمة الذكية التى لم تكن تعنى مجرد الشفقة بالناس بل تعنى القيام بحقهم فى بذل العون لهم حتى يتغلبوا على نوازع الشر فيهم ، وعلى هواجس النفس ، ونقاط الضعف ..

واننا لنتسمع هذا النبض الحنون النبيل من خلال دعائه الذى كان يضرع به الى الله كثيرا :

« اللهم زد محسن امة محمد احسانا ، وارجع مسيئهم الى التوبة .. اللهم ، وحط من أوزارهم برحمتك » . !!

انه لا يتحسس الاخطاء ، ليعاقب عليها . بل ليعالجها فى رحمة وحنان .

وان اخطاء الناس لتشغله الى المدى الذى رايناه حيث لا ينظر اليها كحاكم ، بل كعابد . يصلى من اجل مغفرتها وانهاض ذويها .. !!

وهو لا يستبقى اناته وحلمه وسعة صدره وتسامحه ، داخل اطار ذاته ـــ كخلق شخصى له فحسب .. بل يحولها الى فلسفة للحكم ومنهاج .

ولطالما كان يوصى كل وال من ولاته بهذه الوصية :

« اذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك دون الكى ، فلا تكوينه ابدا . . !! »

ولقد كان من حق حكام الاقاليم قبل عهده أن ينفذوا حكم القتل فيمن يشاءون عدلا ، أو ظلما .

فلما ولى ، حرمهم هذا الحق ، واصدر أمره الا ينفذ حكم القتل فى احد ، حتى يطلع بنفسه على قضيته ، ويرى فيها رأيه .

وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلا :

« والله لا اصلح الناس بهلاك دينى » !!

* * *

على أن رفقه وأناته اللذين وسعا امته جميعا ، لم يكونا مطمعا يغرى باستضعافه أو مخادعته ، فقد كان هناك الحزم اليقظ لكل من تسول له نفسه عبثا ، أو فتنة . . !!

ولقد كانت فضائله كلها مهيأة على الدوام لحماية مواقعها واداء دورها . فلا يجىء موقف يتطلب الرحمة ، فيجدها غافية . . ولا موقف يتطلب الحزم ، فيجده كليلا . . !

ولقد نراه مع عامة الناس ينتفض كالعصفور تواضعا وحنانا ورحمة .

ثم نراه مع الجبارين اسدا يزار . . وجلالا يهاب . . !!

بعد أن يئس الامراء الأمويون من استرداد اقطاعاتهم وثرواتهم

بالضراعة والحيلة ، اغروا واحـدا منهم وهو « عمر بن الوليـد بن عبد الملك » بالكتابة اليه مهددا متوعدا . . فكتب يقول :

« أما بعد ، فقد ازريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت « بغير سيرتهم ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل وعملت « بغـير الحق فى قرابتك . وعمـدت الى اموال قريش « ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلمـا وجورا « وعدوانا .

« فاتق الله يا ابن عبد العزيز ، فانك توشك الا تطمئن على مضجعك . . . » !!!

وفى نفس اللحظة التى يفرغ الخليفة فيها من قراءة هذا الخطاب المتسم بالسفه والطيش ، يتقدم خلق الحزم الصارم ليؤدى دوره تجاه الباطل الذى يتوعد الحق باسترداد سلطانه وبهتانه . . !!

ويكتب امير المؤمنين رده :

« من عمر امير المؤمنين ، الى ابن الوليد . .

« سلام على من اتبع الهدى . .

« أما بعد ، فعهدى بك كنت جبارا شقيا ، والآن تكتب تتهمنى بالظـلم ، لاننى حـرمتك واهـل بيتك من مال المسلمين ما هو حق للضعيف والمسكين وابن السبيل . !

« الا ان شئت اخبرتك بمن هو اظلم منى واترك لعهد الله انه ابوك الوليد ، الذى حين كان خليفـة للمسـلمين استعملك عليهم صبيا سفيها تحكم فى دمائهم واموالهم . !

« فويل لك ، وويل لابيك — ما اكثر طلابكما وخصماء كما يوم القيامة ..

« واظلم منى واترك لعهد الله . من استعمل الحجاج بن يوسف . يسفك الدم الحرام ..

« واظلم منى واترك لعهد الله ، من استعمل يزيد بن ابى مسلم على جميع المغرب . يجبى المال الحرام .. ويسفك الدم الحـــرام ..

« الا رويدك يا ابن الوليد . فلو طالت بى حياة لاتفرغن لك ولاهل بيتك حتى اقيمكم على المحجة البيضاء » ..!!

لنضع خطابه السابق الى « فرتونة السوداء » تجاه خطابه هذا الى ذلك الأمير الاموى المتجبر ، لنرى فى غير تعليق كيف كانت تعمـــل غضائل هذا الانسان الباهر الجليل ..!!

ان الرجل الذى يجلس للناس على الارض وهو خليفة ..

الانسان ، الوديع ، العـــذب ، يتحول الى اعصار مدمدم امام جبروت الباطل انى يكون ..!!

ومثل هـــذا الموقف من الأمراء المتمردين . موقفه من امبراطور الروم .

لقد اخبر ان احد جنود الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية وكان مقاتلا شديد البأس ، قد وقع اســـيرا فى ايدى الرومان . وحمل الى الامبراطور الذى حاول اكراهه على الخروج من دينه الاســـلام ، ورفض الأسير .. فأمر الامبراطور ان تسمل عيناه .

بلغ النبأ ـــ أمير المؤمنين ـــ فهب حزمه الشديد ليعالج الموقف .

وحمل قلمه وكتب الى ملك الروم :

« أما بعـــد . .

« فقد بلغنى ما صنعت بأسيرك فلان . .

« وانى اقسم بالله . لئن لم ترسله الى من فورك لابعثن اليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندى » . !

ويعود الأسير الى وطنه واهله .

* * *

وهو ذو يقظة شاملة ، لا تتجلى فى الانجاز وحده ـــ بل وفى رؤية القضايا ، وادراك الكليات والتفاصيل . .

ولو تتبعنا كتبه الى ولاته لوجدنا من آيات يقظته وشمول نظرته وفطنته ما يبهر الألباب .

نلتقط ببعض فقرات من تلك الكتب :

* « اتبعوا ما أحل الله وحرموا ما حرم واعترفوا بحقه تعالى ، واحكموا بما انزل .
* « افتحوا للمسلمين باب الهجرة .
* « دعوا النـــاس يتجروا بأمـــوالهم فى البر والبحر ، لا تحولوا بين عباد الله ومعايشهم .
* « ابيحوا ارض الحمى للمسلمين عامة ، وليـــكن حق الامير فيها كحق واحد منهم .

* « الخمر باب الخطايا ، فحرموا كل مسكر » .
* « كافحوا التطفيف فى المكيال والبخس فى الميزان .
* « لا تتجروا وانتم ولاة ، فان الامير اذا اشتغل بالتجارة استأثر ، واصاب ظلما ، وان حرص الا يفعل .
* « لا تاخذوا من اموال الناس الا الحق الذى شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله — لا افرق بين مسلم واهل كتاب .
* « ضعوا السخرة عن الناس ، وليكن لكل عمل اجره .
* « ردوا المزارع لما خلقت له ، فانما جعلت لارزاق المسلمين كافة .
* « لا تتخذوا على ابوابكم حجابا يمنعون ذوى الحاجات والمظلومين .
* « اقمعوا صوت العصبية والقبلية ولا تدعوا الناس يقول احدهم ، انا مضرى ، ويقول الآخر : انا يمنى ، فالمؤمنون اخوة .
* « الخيل عدة الجهاد ، فلا تدعوها تركض فى غير حق .
* « امنعوا النساء ان ينشرن شعورهن ويخرجن نائحات وراء الموتى .
* « قاتلوا هواكم ، كما تقاتلون اعداءكم .
* « سددوا المخالفين ، وبصروهم ، وارفقوا بهم ،

وعلموهم ، فان اهتدوا كانت نعمة من الله وفضلا . .
وان ابوا فتحروا الحق فيما تنزلون بهم من عقاب .

* « اكثروا من دعاء الله بالعافية لانفسكم ولمن ولاكم الله امره ، فان لكم في اصلاحهم اكثر مما لهم . .
وعليكم من فسادهم اكثر مما عليهم .

* « تعاهدوا حجابكم ورؤساء حرسكم وشرطكم والعاملين معكم ، واكثروا المسالة عنهم حتى تستيقنوا انهم لا يرتكبون غشما ولا ظلما .

* « لا يلخذنكم الزهو بنظر الناس اليكم ، ولا يحديثهم عنكم . وضعوا اعينكم على الذى هو ابر واتقى واخلص لله رب العالمين .

* « اتركوا اعمالكم عند حضور الصلاة ، فان من اضاع الصلاة كان لما سواها اضيع .

* « تحروا الحق ، ثم اعملوا به بالغا ما بلغ بى وبكم . .
حتى وان ذهب بحياتنا وبمهج انفسنا . . » !!

هذا نموذج من أوامره وتوجيهاته يكشف عن يقظة شاملة لتفكيره ومشاعره وارادته .

يقظة تعطى الجزئيات نفس الاهتمام الذى تعطيه الكليات !!

وبهذا المنهج الذى يستمد من قداسته ، وفطنته ، وعزمه قطع

ابن عبد العزيز طريقه وثبا ، متخذا من الانجاز وسرعة الحركة طابعا لمسيرته المباركة .

لقد كانت مسؤوليته عن كل شيء واضحة وضوح الشمس ، ومشكلات الدولة والامة لا تنتظر من يكشف عنها او يفلسفها، بل تنتظر من يواجهها بذمة وصدق وحسم ، فهيم اذن يكون تلفت او انتظار . .؟!

ومن هنا انطلق ينجز ، وينجز ، وينجز . . معطيا كل مسؤول مسؤوليته ، آمرا اياه ان يمضي بها في شجاعة وحكمة وامانة .

اجل ، لقد كان ينهى ولاته عن ان يكونوا امعات او متواكلين ، هيابين .

وانه ليرضى اعظم الرضا عن ولاته حين يراهم مقبلين على مسؤولياتهم فيشجاعة ، منجزين اياها فيحزم، ميممين وجوههم وافئدتهم صوب الحق وحده ، لا يعدلون به احدا حتى الخليفة نفسه .

« اذا ارسلت اليكم امرا يخالف الحق . .

« فاضربوا به الارض . .

« واستمسكوا بالحق وحده » !!!

وكان يعينهم على قهر التخوف من المسؤولية ، بمنحهم قدرا كبيرا من اللامركزية ، والاستقلال .

ارسل يوما الى احد ولاته امرا ، فارسل الوالي يستوضحه ببعض التفصيلات . فتجهم الخليفة وكتب اليه من فوره :

« أما بعد . .

فاراك لو ارسلت اليك : ان اذبح شاة ووزع لحمها على الفقراء ، لارسلت الى تسالنى : ضانا ام ماعزا ؟ .
فان احببتك . . ارسلت الى تسالنى :
كبيرة ، ام صغيرة .؟
فان احببتك ، ارسلت تسال : بيضاء ، ام سوداء . ؟ !!
« اذا ارسلت اليك بامر . فتبين وجه الحق فيه . ثم امضه » . !!

انه لا يريد ان ينتكأ حقوق الناس وتتعثر فى شكليات عقيمة .

انه يجد نفسه مسؤولا عن كل خطأ ، او مظلمة تبقى دقيقة من الزمان . . ومن ثم فهو يقطع الايام وثبا وراء كل خطأ حتى يصلحه ، ووراء كل حق حتى يؤديه لصاحبه . . !!

وبمثل هذا الحسم والانجاز . كان يغسير كل وال ، او قاض ، او امين او رئيس شرطة، او مسؤول لا تثبتالتجربة السريعة الصادقة انه فى مكانه . . واذا خدع فى احد فظنه للمنصب اهلا ، ثم تبين له انه غير اهل ، لم ينظره لحظة تحت تاثير حرج او مجاملة .

ولقد ملأت يقظته وانجازه بلاد الدولة اعمارا وحياة ، وفجرت طاقات الناس تفجيرا .

وعلى الرغم من انه كان يرى القدوة التى يقدمها للناس جميعا. تفعل فيهم فعل السحر ، وتجرى من ضمائرهم وسلوكهم مجرى الدم فى العروق ، فانه مع ذلك لم يغفل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه . . فنراه يتنقل فى مواطن كثيرة متخفيا ومتنكرا يسأل ، ويفحص . .

ولم تكن فى الحياة بأسرها متعة تشيع فى روحه البهجة والغبطة مثلما يرى أو يسمع ان ظلما قد دحض .. وان عدلا قد نهض .. وان حقا قد رد لصاحبه فى غير جهد منه ، أو الحاف . . !!

ركب يوما فى احدى جولاته هذه ، مصطحبا معه مولاه «مزاحم» حيث خرجا الى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين .

وهناك راح وهو متنكر فى ثيابه يسأل الغادين منهم والرائحين .

ومن بين هؤلاء رجل فى احدى القوافل، اقترب منه «عمر» وسأله:

« كيف تركت الناس فى بلدك . . ؟ »

فقال الرجل : ان شئت جمعت لك خبرى ، وان شئت بعضته تبعيضا . . !!

فابتسم الخليفة ، وقال : بل اجمعه — اى ، اوجزه .

قال الرجل :

« تركت البلاد ، الظالم بها مقهور . . والمظلوم منصور . . والغنى موفور . . والفقير مجبور » . .

وسارع «عمر» بالانصراف بعيدا عن محدثه قبل ان تشى به انفعالاته ودموع الشكر التى راحت تتحدر من مآقيه .

وولى مسرعا . مسرعا . وقلبه الشكور ، ولسانه الذكور يضرعان الى الله بآيات الحمد والثناء .

والتفت الى « مزاحم » وقال له :

« والله ، لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل، لأحب الى مما طلعت عليه الشمس » . . . ! ! !

كتب للمؤلف

١ — من هنا . . نبدأ
٢ — مواطنون . . لا رعايا
٣ — الديمقراطية ، أبدا
٤ — الدين للشعب
٥ — هذا . . أو الطوفان
٦ — لكى لا تحرثوا فى البحر
٧ — لله ، والحرية
٨ — معا على الطريق ، محمد والمسيح
٩ — انه الانسان
١٠ — افكار فى القمة
١١ — نحن البشر
١٢ — انسانيات محمد
١٣ — الوصايا العشر
١٤ — بين يدى عمر
١٥ — فى البدء كان الكلمة
١٦ — كما تحدث القرآن
١٧ — وجاء ابو بكر
١٨ — مع الضمير الانسانى فى مسيره ومصيره
١٩ — كما تحدث الرسول
٢٠ — أزمة الحرية فى عالمنا
٢١ — رجال حول الرسول
٢٢ — فى رحاب على
٢٣ — وداعا . . عثمان
٢٤ — ابناء الرسول فى كربلاء
٢٥ — معجزة الاسلام : عمر بن عبد العزيز
٢٦ — عشرة ايام فى حياة الرسول
٢٧ — والموعد الله
٢٨ — الدولة فى الاسلام

مطبعة دار العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر بالقاهرة تليفون ٩٠٦٧٠٦